

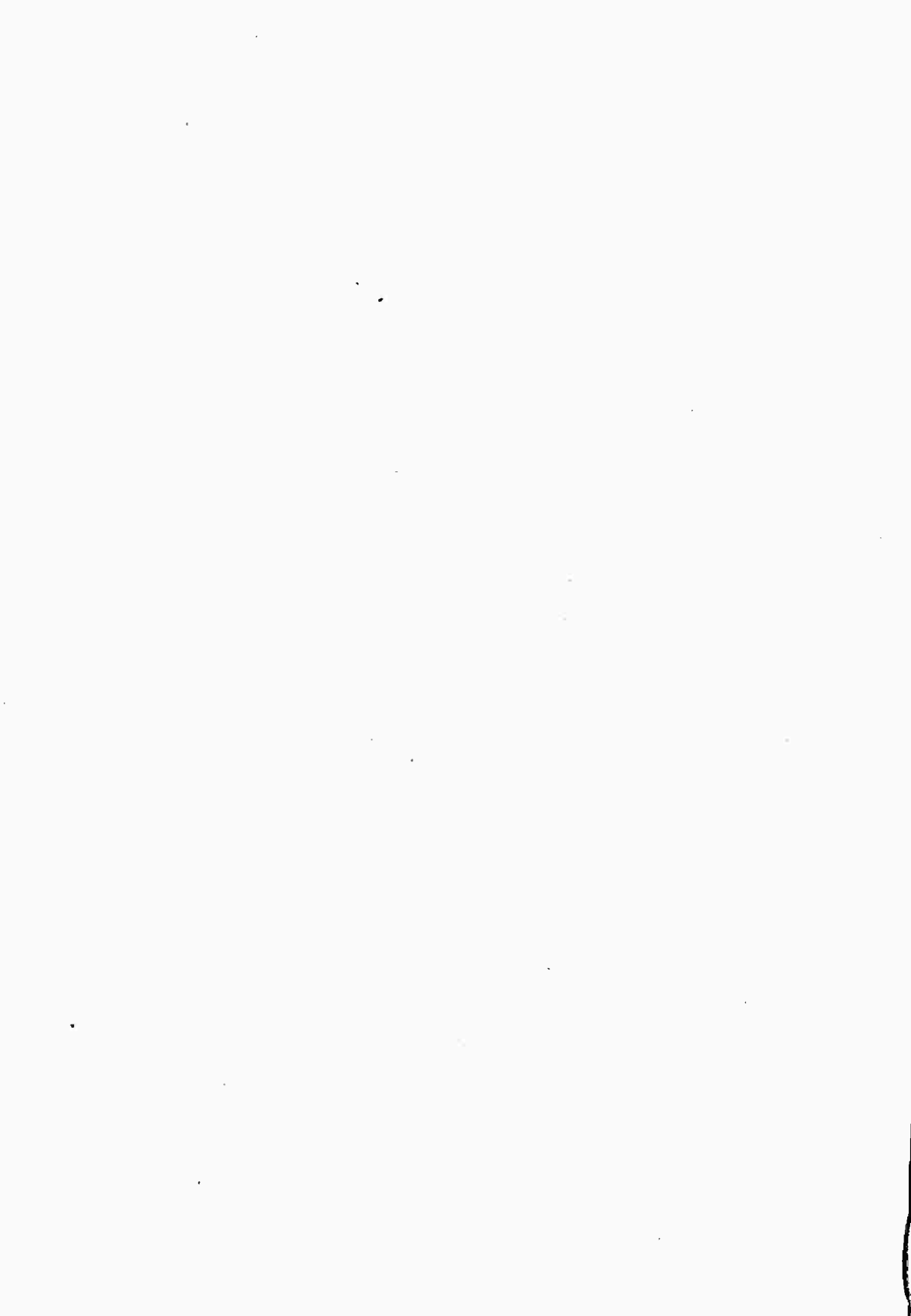
البَابُ الْأَوَّلُ

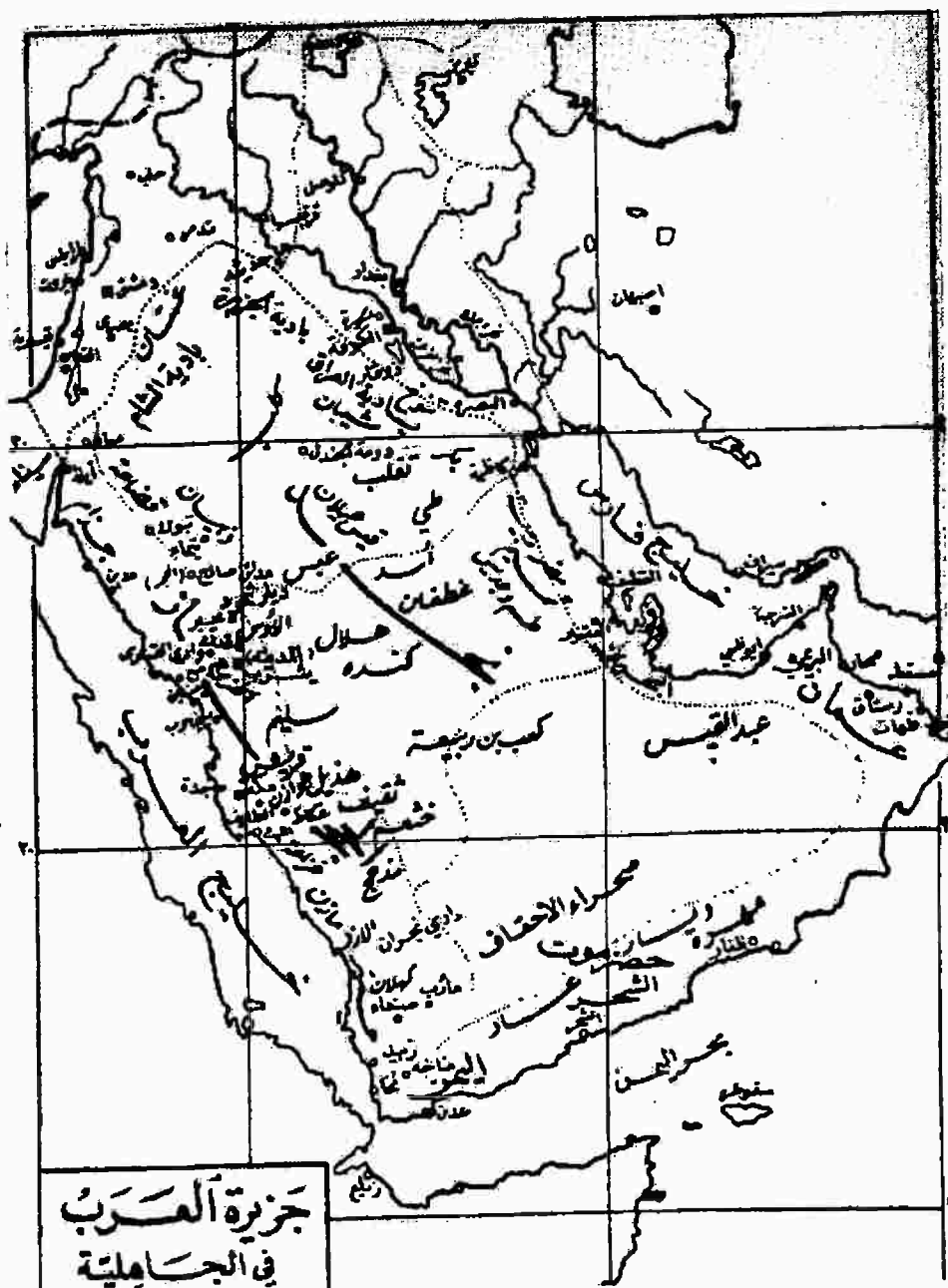
اللِّسَانُ



الفصل الأول

المَهْد





المهد

الموقع :^١

تقع شبه جزيرة العرب Arabia ، أكبر أشباه الجزر في العالم، في أقصى الجنوب الغربي من القارة الآسيوية . ويحدها البحر الأحمر (بحر القلزم) من جهتي الغرب والجنوب الغربي ، وخليج عدن من جهة الجنوب ، وبحر العرب من جهتي الجنوب والجنوب الشرقي ، وخليج عُمان و الخليج الفارسي (الخليج العربي) من جهة الشمال الشرقي ، و العراق والشام وخليج العقبة من جهة الشمال . و تبلغ مساحتها نحو المليون من الأميال المربعة أي ما يقرب من ٢,٥٩٠,٠٠٠ من الكيلومترات المربعة . و يحيط بها البحر من ثلاث جهات ، فتسمى تجزئاً بجزيرة العرب ، و يفصله عن سطحها عدة سلاسل جبلية . وينحدر سطح شبه الجزيرة انحداراً خفيفاً من جبالها المتاخمة لساحل البحر الأحمر صوب شمالها الشرقي باتجاه أراضيها الشرقية الواطئة المتاخمة للخليج الفارسي . و تنتمي جبالها الساحلية الغربية من الوجهة الجيولوجية إلى الساحل الأفريقي المتاخم للبحر الأحمر حيث وقع الصدع الأكبر (الأخدود الأفريقي العظيم East African Rift System) منذ نحو ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة فانفصل القسمان اللذان كانا في الواقع إقليماً جيولوجياً واحداً . و ثمة أدلة على أن هذا الاضطراب الجيولوجي لم يَقَرَّ إلى اليوم فيما يقع من زلازل بالمنطقة و فيما اكتُشف من حقول شاسعة من الالفا (اللابة)^٢ Lava البركانية السوداء ، و من فُوهات بركانية دَثَرَتْ منذ زمن .

و يتميز السطح الداخلي لشبه الجزيرة بتتابع الأقاليم الصحراوية الرملية امتداداً من صحراء النفود في الشمال الغربي إلى الربع الخالي في الجنوب. أما في الشمال الشرقي فإن الأراضي الساحلية الرملية الواطئة تحف بالخليج الفارسي . و لا تعتبر جبالها شاهقة

^١ Encyclopedia Britannica , ١٥th Edition , ١٩٩١, ١ : ٥٠٦-٨

^٢ اللابة هي حُمَم بركانية من صهَر الصخر تسيل من فوهة البركان ، و يُطلق أيضاً على الصخر الصُّلب الناشئ عن تبرّد هذه الحمم (معجم الجيولوجيا - مجمع اللغة العربية المصري - الطبعة الثانية ، ص ٢٣٥).

الارتفاع على وجه العموم، حيث يبلغ أعلاها نحو ١٢٣٣٦ قدماً (٣٧٦٠ متراً) فوق مستوى سطح البحر في صنعاء باليمن .

و يقع القسم الأكبر من الأراضي المترعة بالجزيرة في حدود السهل الساحلي الضيق الذي يفصل سطحها الصحراوي عن البحر على امتداد ثلاثة أضلاعها (الغربي و الجنوبي و الشرقي) ، و كذلك تتركز في ذلك السهل أهم مدنها و مراكزها التجارية التي كانت عبر آلاف ثلاثة من الأعوام همزة الوصل بين جزيرة العرب و آسيا وأفريقيا و لا شك في أن ذلك السور الجبلي المحيط بالجزيرة هو المسئول عن جفاف مناخها جفافاً بالغاً حيث يقل المنسوب الحوئي للمطر عن أربع بوصات أى مائة ملليمتر ، باستثناء بضع مناطق شرقية مما يقع تحت تأثير الرياح الموسمية القادمة من المحيط الهندي ، و كذلك المناطق الساحلية بأقصى الغرب .

و اليمن أصلح بقاع الجزيرة للسكنى لأن المنسوب الحوئي للمطر فيها يترجح بين العشرين و الأربعين بوصة ، أى بين خمسمائة و ألف ملليمتر .

أما سائر أرجاء الجزيرة فإنه يزرع تحت المهجر اللافح الشنيع الحرارة الذي يبلغ ٥٤ درجة مئوية (١٢٩ فهرنهايت) أو ما يربو عليها في الصيف ، و حتى لو انكسرت شوكته ربيعاً و شتاءً فإن الندرة الشديدة في المطر تنشر الجذب و الإحمال بقسوة و ضراوة لا نظير لهما .

هذا و لا يخلو هذا المناخ الفظ الغليظ من رياح شمالية محببة إلى النفس، أو من رياح شرقية لطيفة و هي التي عرفتها العرب باسم الصبا ، و ما إلى ذلك مما تغنت به النفس العربية الشاعرة . أما رياح السموم الصيفية فإنها كأهل تشوى الوجوه ، و هي من أبشع ما عرفت الجغرافيا من ظواهر .

و تخبرنا الجيولوجيا بأن وجه الجزيرة العربية قد كان مضيافاً بشوشاً لمن سكنوا إليه ، لا في غابر الدهر و حسب ، و إنما في حقبة زمنية غير موعلة في البعد عنا نسبياً . و إن

الأودية الباقية والجاري المائية الموسمية الحالية لم تكن ذات يوم إلا مجارى دائمة ، لا ينقطع فيضها على مدار السنة.

وتندثر الأشجار في هذه البطحاء اليابسة بطبيعة الأحوال فيما خلا بعض الأودية و الجبال مما إذا ألم به الماء أنبت أشجار الطلح والأثل والسدر والحناء والرمان والتفاح والليمون ، كما تنبت بها الصفصيفة Alfalfa التي تُستخدم كعلف للحيوان ، و يكثر النخيل في كل أنحائها حيث كان التمر عماداً لاقتصاد الجزيرة في كل عصورها قبل الحِقبة النَّفْطِيَّة بالطبع .

فلا غرَو أن سُمي العربيُّ المطرُ غيثاً في مكابذته هذه الشراسة الطبيعية التي غلبت الصفرة الكالحة على الخضرة التضرية ، والجذب المكفهر على السقيا و الثماء . ويشذُّ عن ذلك الإحمال بعضُ أعالي الجبال مثل إقليم الطائف حيث يُلطف الهواء ، و ينعقد الثلج و يجمد الماء في الشتاء ثم يذوب منحدرأ في جداول تجود على الأرض بالمرارع والبساتين .

وانك لتلمس هذا الحنين العربيَّ الفطري إلى المطر حتى في أزهى عصور الحضارة العربية ، وفي ظروف حياة خالية من شظف العيش وقسوته . تلقاه في أقصى أقاصي الدولة العربية ، عند شعراء الأندلس الذين كانوا في بُلْهَنِيَّة من العيش بلا مراء ، فهناك ابن حمديس الصَّقْلِي يُعَرِّد في استهلال موشحه الأشهر :

جَادَكَ الْغَيْثُ إِذَا الْغَيْثُ هَمَى يَا زَمَانَ الْوَصْلِ بِالْأَلْدَلْسِ
لَمْ يَكُنْ وَصْلُكَ إِلَّا حُلْمًا فِي الْكَرَى أَوْ خِلْسَةِ الْمُخْتَلِسِ

(الرَّمْل)

وانظر إلى أوصاف المطر ودرجاته^١ ، والدقة الفطرية التي تخلو كل الخلو من التكلف ، لأن ذلك قد أملت الحاجة ؛ والحاجة إلى الدلالة اللغوية ، مثلها مثل كل حاجة ، أم الاختراع : "إذا أتت السماء بالمطر الخفيف قيل خَفَشْتُ وَحَشَكْتُ ، فإذا استمر مطرها قيل هَطَلَتْ وَهَنَّتْ ، فإذا صب الماء قيل هَمَعَتْ وَهَضَبَتْ ، فإذا ارتفع صوت وقعها قيل أَهَلَّتْ وَاسْتَهَلَّتْ ، فإذا سال المطر بكثرة قيل انْكَبَّ وَانْبَعَقَ ، فإذا سال

يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا قِيلَ انْعَجَزَ وَ انْعَجَجَ ، فإذا دَامَ أَيَّامًا لَا يُقْلَعُ قِيلَ انْجَمَ وَأَغْبَطَ
وَأُدْجَنَ ، فإذا أَقْلَعَ قِيلَ انْجَمَ وَأَفْصَمَ وَأَفْصَى وَأَخْفَ الْمَطَرِ وَأَضَعَهُ الطَّلُ ، ثم
الرَّذَاذُ أَقْوَى مِنْهُ ، ثم الْبَغْشُ وَالْدَثُ ، ومثله الرُّكُّ والرَّهْمَةُ ، و أول المطر رَشٌّ
و طَشٌّ ، ثم طَلٌّ وَرَذَاذٌ ، ثم نَضَحٌ وَنَضَحٌ وهو قَطَرٌ بَيْنَ قَطَرَيْنِ ثم هَطْلٌ وَثَهَاتَانِ ، ثم
وابِلٌ وَجَوْدٌ .^١

ويوردُ الثعالبيُّ عَشْرَاتٍ أُخْرَى مِنْ أَسْمَاءِ الْمَطَرِ وَفَقَ كُلٌّ مِنْ الظَّوَاهِرِ الَّتِي تَصَاحَبُهُ
أَوْ الَّتِي تَجُمُّ عَنْ إِصَابَتِهِ وَجَهَ الْأَرْضِ ، وَلَا نَرِيدُ أَنْ نَسْتَرْسِلَ فِي ذَلِكَ لِأَنَّهُ يَنبَأُ بِنَا عَنْ
مَقْصِدِنَا ، وَإِنَّمَا نَرِيدُكَ أَنْ تَقِفَ عَلَى الدَّقَّةِ النَّوعِيَّةِ specificity الَّتِي جُبِلَ عَلَيْهَا الْفِكْرُ
الْعَرَبِيُّ الْبِدَائِيُّ فِي رَصْدِهِ مَا يَعْرِضُ لَهُ مِنْ ظَوَاهِرَ فِي بَيْتِهِ الْبَرِيَّةِ الْأُولَى قَبْلَ أَنْ تَسْتَرَامِيَ
أَطْرَافُ دَوْلَتِهِ الْكُبْرَى بَعْدَ الْبَعْثَةِ الْمَحْمَدِيَّةِ . وَ إِنَّكَ وَاجِدٌ مِثْلَ ذَلِكَ فِي تَرْتِيبِ أَصْوَاتِ
الرَّعْدِ ، وَفِي تَفْصِيلِ الرِّيحِ ، وَفِي تَقْسِيمِ خُرُوجِ الْمَاءِ وَسَيْلَانِهِ مِنْ أَمَاكِنِهِ ، وَفِي كَمِّيَّتِهِ ،
وَفِي أَوْصَافِ الْآبَارِ وَتَرْتِيبِ السَّيْلِ وَتَفْصِيلِهِ ، وَفِي تَفْصِيلِ الرَّمَالِ وَالْجِبَالِ وَالزُّرُوعِ
وَالثَّمَارِ وَالْإِبِلِ وَسَائِرِ الْحَيَوَانِ ، وَالْخَمْرِ ، وَكُلِّ مَا عَرَضَ لِلْعَرَبِيِّ مِنْ مَخْلُوقَاتِ
وَأَحْدَاثِ وَظَوَاهِرَ فِي بَيْتِهِ الَّتِي تَبْدُو لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى خَالِيَةً مِنَ التَّعْقِيدِ وَالتَّنَوُّعِ .
وَلَا شَكَّ لَدَيْنَا فِي أَنَّ الْإِنْسَانَ الْأُورُوبِيَّ الَّذِي غَمَرَتْ الْأَمْطَارُ سُهُولَهُ وَجِبَالَهُ وَأَوْدِيَّتَهُ
فِي جُلٍّ عَصُورِهِ لَمْ يَتَكَبَّرْ مِنَ الْأَلْفَاظِ فِي أَىٍّ مِنْ لُغَاتِهِ الْمُتَعَدِّدَةِ مِثْلَ هَذَا الْعَدَدِ الضَّخْمِ مِنْ
الْأَلْفَاظِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي تَصِفُ الْمَطَرَ ، لَا مِنْ حَيْثُ هِيَ مُتَرَادِفَاتٌ ، وَإِنَّمَا مِنْ حَيْثُ هِيَ
دَرَجَاتٌ فِي التَّوَعُّيَّةِ ، مَعَ الْإِخْتِصَاصِ الْوَصْفِيِّ لِكُلِّ لَفْظَةٍ نَوْعِيَّةٍ مِنْهَا بِسِمَةِ دَقِيقَةٍ مِنْ
السَّمَاتِ الْمُتَعَدِّدَةِ لِلْمَطَرِ وَمَرَاتِبِهِ ، كَلَّا بَلْ لِمَرَاتِبِ السَّحَابِ أَيْضًا فِي كُلِّ حَالَاتِهِ ، وَمَا
إِلَى ذَلِكَ مِمَّا هَفَّتْ إِلَيْهِ نَفْسُ الْعَرَبِيِّ لِنُدْرَتِهِ ، وَلَمْ تَهَفُ إِلَيْهِ نَفْسُ الْأُورُوبِيِّ لَوْفَرَتِهِ ،
وَالْمُنَوَّعُ مَرْغُوبٌ كَمَا يُقَالُ .

^١ المصدر السابق .

وهكذا ترى أن الحثم الجغرافي يُعملُ عمله كلما بسطَ الله على البشر أو قَدَرَ عليهم في رزقهم الطبيعي المائل في بيئتهم على حد سواء .

ولعلك ، من منظورٍ عصريٍّ ، تُنكرُ على اللسان العربي ذلك التعدد اللفظي ، على الرغم من براءة ساحته من قِمة الترادف غير المُجدي ، ولكنا نذكرُك بأن ذلك الثراء في فن القول ونوعيته لم يكن في عصره أمراً مفتعلاً يؤديه العربي متحذلقاً ، وإن كان شيئاً طبعياً أقرب إلى لغته العامية الدارجة ، لأن لسان قريش الذي سادَ السنة العرب باعتباره فصاحتهم المتواضع عليها لم يكن سوى إحدى لهجات العرب ، أي إحدى لغاتهم العامية ، لأنها ما كان لها أن تفهم اللهجات الثمودية والصفوية واللحيانية والحِميرية وما إليها إلا من طريق جريانها على لسان قريش في حياتها اليومية جزى السلسال العذب اليسير . ولئن صارت لهجة قريش لغة آداب العرب فيما بعد ، وفصاحتهم المعتمدة ، فإن هذا لا ينفي أنها كانت في عصرها الأول أبْلَغَ العاميات العربية ، فلولا جريانها على لسان الحياة اليومية لما جرت على لسان الأدب ، وإلا فكيف بالله عَرَفَ الأدبُ طريقةَ إليها ؟

في ظاهرة مماثلة ، هزَمَ اللسان العامي الإيطالي اللاتينية في عُقر دارها عندما هتَفَ به دانتي وبتراكي في شعرهما ، إذ أيقنَ هذان الشاعران المبدعان أن عامية إيطاليا أفصحُ من فصاحتها العتيقة ، وأقربُ إلى وجدان الشعب ، وأشعرُ من اللاتينية التي رَسَفَ في أغلالها اللسان الإيطالي رَدْحاً من الزمن . فلا غرو أن تنصير اللغة الأدنى إلى طبيعة الفكر وحاجته في أمة من الأمم .

ولعلك الآن لا تنكرُ على العربية هذا التنوع الخصب في التعبير عن ظاهرة من الظواهر أو كائن من الكائنات متى عَلِمْتَ أن هذا التعدد اللفظي كان أمراً مألوفاً لديهم ، غير مُتكلفٍ ، جرت به ألسنتهم حياتهم اليومية . ولعل ذلك نفسه كان السبب في أن فطاحل الشعر الجاهلي لم يخرجوا من قريش ، وإنما من بطون العرب التي دانت للهجة قريش واستلهمتها لا كلهجة عامية قرشية محلية ، وإنما كفصحى عربية أبْلَغَ في شاعريتها من لهجاتهم ؛ أما قريش نفسها فإنها لم تجد حاجة ملحة إلى الإبداع في لغة اجتبتها من بين لغات العرب ، ثم ألفتها حتى لكأنها جُبلت عليها ، وما انفكت

تبدعها على نحو مستمر في خطاها اليومي ، وأسواقها ، ومعاملاتها بلا عناء ولا تكلف.

الأقاليم :

الحجاز - تهامة :

عرف الحجاز بهذا الاسم لأن جبل السَّراة يمتد من اليمن جنوباً إلى الشام في أقصى الشمال فكان بمثابة الحاجز بين أرض تهامة الهابطة (الغور) بمحاذ الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر وبين أرض نجد المرتفعة ، وفيما بعد اعتبرت تهامة تجزؤاً قسماً من الحجاز. وأشهر مَدُن هذا الإقليم مكة والمدينة (يثرب) والطائف . والآخره أخصبها أرضاً ولطفها مناخاً كما تقدم .

ومكة هي المركز الديني والاقتصادي والثقافي لجزيرة العرب منذ أقام بها إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام بيت الله الحرام (الكعبة).^١ وقد كانت في غابر عهدها بؤرة الديانة الخيفية (ملة إبراهيم) إلى أن أخذت غيوم الشرك تتعقد في سمانها فبدل قومها الضلالة بالهدى ، وأعلوا أصنامهم في صحنها ، ودكسوا البيت الحرام ، وإن ظل محجاً ومزاراً يؤمه عبدة الأوثان من كل مكان بالجزيرة وغيرها . وقد ذكر هيرودوت الإلات (اللات) على أنها من أكبر أرباب العرب^٢ .

وكانت مكة في الجاهلية سوقاً رائجة للسلع ، والنساء (وفيهن الرقيق والعاهرات) ، والفن . ولم يكن هذا الفن بالطبع إلا الشعر العربي الذي ترعرع في هذا المعرض السنوي الذي احتفت به العرب كيهرجان ينتظر من العام للعام بفارغ الصبر . وكانت عكاظ أشهر أسواق العرب ، يحتكم الشعراء إلى جمهورها وإلى ذوى المكانة فيها فيما يعرضون من شعر ، فيحظى أجود ما يلقى من قصائد بالتكريم والاستحسان ، ويدون في بعض الأحيان بماء الذهب على الحرير القادم من مصر

^١ الفصل في تاريخ الأدب العربي : أحمد الإسكندري ، أحمد أمين ، على الجارم ، عبد العزيز البشري ، أحمد ضيف .

^٢ سميت الكعبة لأنها بناء مكَّت الشكل (فقه اللغة للعلامة) ، ويل ديورانت : قصة الحضارة - عصر الإيمان ، ج ٢ : ٤ م ص ١٨ .

^٣ ويل ديورانت : قصة الحضارة ، ج ٢ : ٤ م ص ١٩ .

^٤ كانت هناك أيضاً سوقان أسريان هما بجة و ذو الحجاز .

(القُباطِيّ) ، ومن ثمّ تسمية هذا البعض القليل بالمذْهَبَات ، وهي المَعْلَقَات السَّبْعُ الشهيرة ، لأنها كانت تُعلّقُ على جدرانِ الكعبة ، وإن كان هذا الأمرُ مشكوكاً في صحته . وقد زَعَمَ لامنس أن مكة كانت أشبه بجمهورية البندقية التجارية^١ ، وفي ذلك شيءٌ من المبالغة لا يخفى لأن المجتمع المكيّ لم يَعدْ كونه اتحادَ عشائرٍ ارتبطَ بعضها ببعض في حلفٍ لقرصِ سِدانةِ الكعبة من جهة ، والقيامِ على تجارةِ القوافلِ من جهةٍ أخرى^٢ . وكان يسكنُ الحجازَ من قبائلِ العربِ الأوسُ والخزرجُ في يثرب ، وقريشٌ في مكة ، وثقيفٌ في الطائف ، وهذيلٌ في هضابِ جنوبيّ مكة ، وقد اشتهرَ شعرُ الهذليّين برقيته وجماله ، وهو يكادُ أن يكونَ الديوانَ الوحيدَ من الشعرِ الجاهليّ الذي وقّعَ لنا منسوباً إلى القبيلةِ التي أبدعته ، وإن كان بعضُ هذا الشعرِ جاهلياً ، وبعضه الآخرُ متحلاً^٣ .

نجد :

تنحدرُ هضبةُ نجدِ الفسيحة من الغربِ إلى الشرقِ متصلةً بأرضِ العَروضِ (اليَمَامَةِ والبحرينِ) . والعالية هي جزؤها المرتفعُ مما يلي الحجازَ ، والسافلة جزؤها الواطئُ مما يلي العراقَ . وَنَبْتُهَا الغضا (الأثل) ومن ثمّ عُرِفَ سكانُ نجدٍ بأهلِ الغضا . والدهناءُ أو رملَةٌ عاجِ الفاصلةِ بين نجدٍ والبحرينِ هي منازلُ قبيلتي تميمٍ و ضَبَّةٍ في الجاهلية والإسلام . و جُلُّ أرضها قِفَارٌ غيرُ ذاتِ زرعٍ فيما خلا قسمها الشمالي الذي ينمو في شتائه النبتُ والمرعى . و إلى الشمالِ من نجدٍ تقعُ باديةُ الشامِ الوفيرةُ الأوديةِ والواحاتِ ، وباديةُ العراقِ (بادية السّماوة) ، وهما ليستا قسماً من نجد .

العروض :

ويشمل هذا القسمُ اليَمَامَةَ والبحرينَ ، ويُظنُّ أنها كانت مساكنَ طُسمٍ وجديسٍ وهما من أشهرِ قبائلِ العربِ البائدة .

^١ المصدر السابق ص ١٥ .

^٢ Lammens : La Mecque , p. 175

^٣ د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي - الطبعة العشرون ، دار المعارف ، ص ١٧-٢١ .

^٤ ديوان الهذليين - الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٥ ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب .

^٥ د. علي الجندي : في تاريخ الأدب الجاهلي ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ، ص ١٧٠-١٧١ .

^٦ د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي (السابق)

اليمن :

كانت اليمنُ أخصبَ أقاليمِ الجزيرةِ العربيةِ و أقصاها عن شَطَفِ البداوةِ ، وأدناها إلى دعة الحضارة . وقد تمتعت اليمنُ بالخيرِ والنماءِ منذُ أقدمِ العصورِ لما تفرَّدتْ به من سائرِ أرجاءِ الجزيرةِ العربيةِ من مطرٍ هتونٍ ، وثمرٍ وفيرٍ ، فقامتْ في ربوعها حضاراتٌ كبرى ، لما يكشفُ المُتَقَبُّون من الأثريِّين عن ملامحها حتى يومنا هذا . وقد وُجِدَتْ بأرضها شواهدٌ على ازدهارِ فنونها وعلومها ازدهاراً عظيماً ، حيثُ أقامت بها ممالكٌ متتابعةٌ شيدت السدودَ والأنظمةَ المتطورةَ للزراعةِ والرِّىِّ مما كَفَّلَ لأهلها عيشاً رَغداً ، وقرَّراً في البالِ والسُّكنى حتى أخفى عليهم الدهرُ فيمن أخنى عليه من خَضِرٍ - والدهرُ لا يجورُ على بدوِ بطبعه ، فلا مَأْرَبَ له فيهم - فتوالت عليهم عاديَّاته من كوارثٍ وغزواتٍ بغيرِ إِمهالٍ ، فأبدلهم من نعمائهم شقاءً مقيماً ، و من عِزِّهم فاقةً وبؤساً .

ومن حيثُ إنَّ العقيدةَ جزءٌ لا ينفصمُ من الحضارةِ ، وليسَ مُجَرَّدَ مَظْهَرٍ لها ، فقد وقعت المسيحيةُ موقعاً حسناً من قلبِ اليمنِ في العصرِ الذي سَبَّحت فيه جزيرةُ العُوبِ بحمدِ الأصنامِ ، وخرَّت لها ساجدةً . وكانت نجرانُ موقعَ النصرانيةِ في اليمنِ ، وكلنت بها كعبةٌ يُعَظِّمونها في مقابلِ كعبةِ مكة ، واتصلت أسبابُ اليمنِ بالحِشَّةِ لاتحادِهِما في العقيدةِ .

ومن مدنها مأربُ التي كان بها سدُّها الأشهرُ الذي لم تَزَلْ آثارُه باقيةً إلى اليومِ ، وصنعاءُ وبها قصرُ عُمدانَ المعروفُ الذي يُقال إن سيفَ بَنِ ذِي يَزَنَ استردهُ في الجاهليةِ من الحِشَّةِ ، وقد استولت عليه بعدَ غزوها اليمنَ . وإلى الجنوبِ من صنعاءَ تقعُ ظَفارُ التي كانت حاضرةً للهِمْيَرِيِّينَ ، وفي أمثلةِ العربِ : " من دَخَلَ ظَفارَ حَمَّو " أى نطقُ باللغةِ الهِمْيَرِيَّةِ . وقد ذَكَرَ القرآنُ صَنَمَينِ عبدَهما قبيلةُ هَمْدانَ وهما يَغوثُ وَيَعوقُ ، مما يَدُلُّ على أن المسيحيةَ لم تنتشرْ في كلِّ بقاعِ اليمنِ السعيدِ أو بلادِ العربِ السعيدةِ كما سَتَتها اليونانُ .

الْقَوْمُ : (الجاهليّون - العرب و الأعراب - العاربة و المستعربة - ممالك و أمم)

الجاهليون :

الجاهلية ، من حيث الاشتقاق ، مصدر صناعي من "الجاهلي" نسبة إلى الجهل^١ ، و هو نقيض العلم ، و هو الزَّيْغُ عن الحق ، و الميل عنه . و الحق المَعْنَى هنا هو الإيمان برب واحد باري للكون والكائنات؛ و لا تعنى الجاهلية بالضرورة جهلاً بهذا الحق ، و إنما بالأحرى مكابرة و مماناة في الإقرار به ، على علمه . و الحق المجهول أو المتجاهل هو أيضاً الحكمة بمفهومها الرحب من روية و صبر و تبصر و حسن تقدير و سماحة نفس و بعد عن التعصب .

و صيغة "جاهل" على وزن فاعلٍ تحمل معنى المصاحبة ، و المبالغة أو المزايدة و الإمعان . فالجاهلي يصاحب الجهل ، و يعن فيه ، و يَعْمَهُ عن الحق طغياناً ، و عقوقاً ، و تمرداً . و ينطوي ذلك على خصال أخرى مثل الحُمَق ، و التَّزَق ، و السَّفَه ، و الحَمِيَّة ، و السَّرْعَة ، و الغرور .

و الذي لا شك فيه أن الجاهليين لم يَغْفَلُوا عن سيرة الرُّسُل و الأنبياء ، و لا عن طبيعة الأمانة التي كُلفوا بإبلاغها إلى البشر ؛ فقد كان بجزيرة العرب يهود و نصارى ، و من المعلوم أن يهود يثرب في الأصل عرب هَوَّدُوا . و قد كان في القرون الأولى للميلاد مستعمرات لليهود في تَيْمَاء ، و في فَدَك ، و في خَيْبَر ، و في وادي القرى ، و في يثرب وهي أهمها جميعاً^٢ . و إلى يثرب نزحت الأوس و الخزرج من اليمن نحو عام ٣٠٠ م بعد أن سبقهم اليهود إلى استعمارها بزمان^٣ .

^١ على الجندي (السابق) ص ٨ .

^٢ أحمد أمين : فجر الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الخامسة عشرة ، ص ٢٩ .

^٣ أحمد أمين (السابق)

و في نجران باليمن وقعت النصرانية ، و ما كان أهلوها بمقطوعي الأسباب بأهل البادية ، إذ كانت نجران مصنعاً عظيم الخطر لأسلحة العرب ، والأنسجة الحريرية ، و الجلود ، و الحُلل اليمانية التي تفتى بها الشعراء .

فالجاهلي لم يكن مُنْتَبِ الصلة بفكرة الإيمان و التوحيد ، و إنما كان مكابراً ، صَلفاً ، مجارياً للعتوّ و الجهل ، متعامياً عن الحق ، لأن الحرية التي رتع الأعرابي في ملاعبها كانت أَرَجَب كثيراً من حرية المواطن الناعم بديمقراطية "وِست مينستر" Westminster Democracy المعاصرة لنا ، و التي يعتبرها السياسيون أَوْجَ مطمح البشر إلى الحرية و العدالة .

و لم يكن ذلك بالطبع نتيجة لديمقراطية منظمة عرفتها البادية ، و إنما هو راجع إلى القوضى ، و البدائية ، و الهمجية التي فرضتها حياة الحِلِّ والتَّرحال ، و الافتقار إلى الأمن في المعاش و المَوْرَد و المطعم .

و يوجز لنا بارنز^١ Barnes عالم الاجتماع ذلك الفرق بين الإنسان في المجتمع البدائي و بينه في المجتمع المدني الحديث :

اتجاه التطور

المجتمع البدائي	المجتمع المدني
١- دور الفرد تحدده العلاقات الشخصية	١- دور الفرد تحدده العلاقات غير الشخصية
٢- الفرد مرتبط بساتر الأفراد و المساواة تامة	٢- توجد طبقات اجتماعية
٣- القرابة و النسب أساس العلاقات الاجتماعية	٣- العمل و الأجر و المِلْكِيَّة الفردية أساس العلاقات
٤- النظام : القبيلة و العشيرة	٤- النظام : الدولة

وحسبك النظر إلى هذا البيت ، و قائله عمرو بن كلثوم ، لتدرك المفهوم الجليّ للجاهلية :

ألا لا يَجْهَلُنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فنجَهْلُ فوقَ جهلِ الجاهليينا (الوالد)

^١ Barnes, H. : An Introduction to the History of Sociology , New York , ١٩٥٨ , p. ١٤٤

ولعلك تلمس في هذا البيت الذي سنعود إليه في دراستنا للمعلقة ، روح المكابرة والصلف والإمعان في الغي والباطل ، كما لا يخفى عليك الاعتداد والافتان بالنفس ، ولو كلفا الشاعر الخطل في الرأي والقول . هكذا الجاهلية ، ضيق في الأفق ، وتبرم بالصدوع بالأمر ، وقصور في النظرة إلى الكون والأشياء .

ومن قبل ذلك بقرون ، تطّعت الروح اليونانية إلى أقصى مطامح الخيال والتوق إلى المعرفة ؛ فبحثت عن ماهيات الأشياء ، وتفكرت في آيات الوجود بروية كلية شاملة ، وربطت المسببات بأسبابها ، وخلّصت إلى دوران المعلول وراء علته وجوداً وعدمًا . أما الأعراي فلم يؤت هذه البصرة الثاقبة ، أو أنه صد عنها إذ وخط شعاعها حلّكة عقله ، فكأنه عقل عقلة على الحسف والهوان كما قال المتلمس :

ولا يقيم على ضيم^١ يراد به إلا الأذلان غير الحي^٢ والوئد
هَذَا عَلَى الحسف معقوص^٣ برمته وذا يشح فلا يرى^٤ له أحد
(البسيط)

العرب - الأعراب :

يقول ابن منظور المصري ، صاحب لسان العرب :
"العرب والعرب جيل من الناس معروف ، خلاف العجم ، وهما واحد مثل العجم والعجم ، مؤنث ... والعرب العاربة ، الخلف منهم ، وأخذ من لفظه فأكد به ، كقولك : ليل لائل ، تقول : عرب عاربة وعرباء : صرحاء . ومُتَعَرِّبَةٌ ومُسْتَعَرِّبَةٌ : دخلاء ، ليسوا بخلف . والعربي منسوب إلى العرب ، وإن لم يكن بدويًا ، والأعراي : البدوي ، وهم الأعراب ، والأعاريب جمع الأعراب . وليس الأعراب جمعاً لعرب ، كما كان الأنباط جمعاً لنبط ، وإنما العرب اسم جنس . والتسب إلى الأعراب : أعراي"

^١ "حسف" في رواية أخرى .

^٢ "الأهل" في رواية .

^٣ "معقول" في رواية .

^٤ "يكي" في رواية

... وَ رَجُلٌ مُعَرَّبٌ إِذَا كَانَ فَصِيحًا ، وَ إِن كَانَ عَجَمِيَّ التَّسَبُّبِ ... وَ الْأَعْرَابِيُّ إِذَا قِيلَ لَهُ : يَا عَرَبِيَّ ، فَرِحَ بِذَلِكَ وَ هَشَّ لَهُ ... وَ قَالَ قَتَادَةُ : كَانَتْ قَرِيشٌ تَجَمِّى ، أَى تَخْتَارُ ، أَفْضَلَ لُغَاتِ الْعَرَبِ ، حَتَّى صَارَ أَفْضَلَ لُغَاتِهَا (أَى لُغَاتِ الْعَرَبِ) لُغَتُهَا (أَى لُغَةُ قَرِيش) ... وَالتَّعَرِّيبُ : الْإِكْثَارُ مِنْ شُرْبِ الْعَرَبِ وَ هُوَ الْكَثِيرُ مِنَ الْمَاءِ الصَّافِي ، ... وَ هُوَ أَيْضًا : قَطَعَ سَعَفَ النَّخْلِ ، وَ هُوَ التَّشْدِيبُ ... وَ عَرَبَ الرَّجُلُ إِذَا غَرِقَ فِي الدُّنْيَا "١ .

وَفِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ :

"وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ" .

(النحل / ١٠٣)

"نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ" .

(الشعراء / ١٩٣ - ١٩٥)

"وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ" .

(فُصِّلَتْ / ٤٤)

"إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" .

(يوسف / ٢)

"وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَ لَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ" .

(الرعد / ٣٧)

"وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا" .

(طه / ١١٣)

"قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ" .

(الزُّمَر / ٢٨)

^١ ابن منظور الأفریقی المصري : لسان العرب ، دار المعارف بمصر ، ج ٤ : ص ٢٨٦٣ و ما بعدها .

"كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ."

(فُصِّلَتْ / ٣)

"وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ."

(الشورى / ٧)

"إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ."

(الزخرف / ٣)

"وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ"

(الأحقاف / ١٢)

"وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ."

(التوبة / ٩٠)

"الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ."

(التوبة / ٩٧)

"وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ."

(التوبة / ٩٨)

"وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ."

(التوبة / ٩٩)

"وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْسُنُ نَعْلَمُهُمْ سَتَعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ."

(التوبة / ١٠١)

"مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْنُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ."

(التوبة / ١٢٠)

"يَحْسِبُونَ الْأَعْرَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَعْرَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَتْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ."

(الأحزاب / ٢٠)

"سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ."

(الفتح / ١١)

"قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرُكُمْ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤَيِّدْكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ."

(الفتح / ١٦)

"قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ."

(الحجرات / ١٤)

فها أنتَ ذا ترى وجه الاختلاف بين العرب والأعراب ، فهؤلاء بدو رحل ، وأولئك حضرة قارون مقيمون ، والأعراب ، كما ترى من وصف القرآن لهم ، منافقون "مردوا" أى مَرَتُوا على النفاق و دَرَبُوا به ، وهم متقاعسون عن النزال والمصاولة آن البأس ، وفيهم من يتربص بالمؤمنين الدوائر ويتحينهم المصارع ، كما أنهم - لا على إطلاقهم بالتأكيد وإنما بالقياس إلى غيرهم - أشد كُفْرًا ونفاقًا وأجسَدُ ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، ولكن من عمل منهم عملاً صالحاً سيُدخله الله في رحمته .

ولابن خلدون رأى في العرب لا يخلو من قسوة . ولا فرقَ عنده بين العرب والأعراب ، فيقول في مقدّمته :

"إنهم لطبيعة التوحش الذي هم فيه أهل انتهاب وعَبَث... وهم إذا تغلبوا على أوطانهم أسرع إليها الخراب ، لأنهم أمة وحشية ، فينقلون الحجر من المياني ويُخربونها لينصبوه أثافي للقدر ، ويُخربون السقف ليعمرّوا به خيامهم ، ويتخذوا الأوتاد منه ليوثهم ، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حدّ ينتهون إليه ، ... إنما همّهم ما يأخذونه من أموال الناس نقباً أو مغرماً ، ... وهم متنافسون في الرياسة وقلّ أن يُسلم واحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته ... وانظر إلى ما ملكوه من الأوطان من لدن الخليفة كيف تقوّض عمرائه وأقفر ساكنه ، فاليمن - قرارهم - خراب إلا قليلاً من الأمصار ، وعراق العرب كذلك قد خرب عمرائه الذي كان للفُرس أجمع ، والشام لهذا العهد كذلك . وهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض ، للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة ، فقلما تجتمع أهواؤهم ... والمياني التي يخطونها يُسرّع إليها الخراب لقلّة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن ... وإنما يُراعون مراعى إبلهم خاصّة ، لا يُبالون بالماء طاب أو خبث ، ولا قلّ أو كثر ... وانظر لسا اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يُراعوا في اختطاطها إلا مراعى إبلهم وما يقرب من القفر ومسالك الظعن ، فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدن ، ... وهم أبعد الناس عن الصنائع لأنهم أعرق في البدو وأبعد عن العمران الحضري وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها ، ... وهم أبعد الناس عن العلوم ، لأن العلوم ذات ملكات ، محتاجة إلى التعليم ، فاندرجت في جملة الصنائع ، والعرب أبعد الناس عنها كما قدّمنا ، فصارت العلوم لذلك حَضَرِيّة ، وبُعد العرب عنها وعن سوقها ، والحَضَرُ لذلك العهد هم العَجَمُ أو من في معناهم من الموالي ، ... ولم يَقمَ بحفظ العلم و تدوينه

^١ مقدمة ابن خلدون ، المكتبة المصرية ، صيدا - بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٧ ، من الفصل السادس والعشرين إلى الثامن

والعشرين ، ص ١٣٩ - ١٤١ .

إلا الأعاجم ... وهم ، مع ذلك ، أسرَع الناس قبولاً للحقّ والهدى ، لسلامة طباعهم من عَوَج الملكات ، و براءتها من ذميم الأخلاق ، إلا ما كان من خُلُق التوحّش القريب المعاناة ، المتهىء لقبول الخير . وهم أقرب إلى الشجاعة ، لأنهم قائمون بالمدافعة عن أنفسهم ، لا يَكِلُونها إلى سواهم ، و لا يثَقُون فيها بغيرهم ، فهم دائماً يحملون السلاح ، ويتلقّون عن كلّ جانب في الطرُق ، ... وهم لا يزالون مَوْسومين بين الأمم بالبيان في الكلام ، و الفصاحة في النطق ، والدّلاقة في اللسان ، و البيان سِمَتُهُم بين الأمم منذ كانوا^١ .

ويقول الجاحظ^٢ في العقل العربيّ مقارناً بقول الأمم الأخرى :
 "فأما الهند فإِنما هم معان مُدَوَّنة ، وكتب مغلّدة ، ... و لليونانيين فلسفة وصناعة منطوق ، ... وفي الفرس خُطباء ، إلا أن كلّ كلام للفرس ، وكلّ معنى للعجم ، فإنما هو عن طول فكرة وعن اجتهد رأي ، وطول خلوّة ، وعن مشاورة و معاونة ، وعن طول التفكير ودراسة الكتب ، ... وكلّ شيء للعرب فإنما هو بديهية وارتجال ، وكأنه إهام . . . لست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا إجمالة فكر ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وحمّة إلى الكلام ، ... فتأتيه المعاني أرسالاً ، وتنشأ عليه الألفاظ انشلالاً ، ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يندرسه أحداً من ولّديه ، وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلّفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر ، وله أفهر ، ... وليس هم كمّن حفيظ علم غيره واحتذى على كلام من كان قبله ، فلم يحفظوا إلا ما علّق بقلوبهم ، و التحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد ، ولا تحفّظ ولا طلب . "

ويرى أوليري^٣ أن العربيّ ماديّ بطبيعته ، جامد العاطفة ، محدود الخيال معتدّ بذاته ، كريم ، شديد الوفاء لقييلته .

^١ الجاحظ : البيان و التبيين ، شرح و تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ج ٣ ، مجلد ٢ ص ٢٧ - ٢٨ .

^٢ O'Leary : Arabia before Mohammad

ويقول أحمد أمين: " وفي الحق أن العربي ذكيٌ ، يظهر ذكاؤه في لغته ، ... ولكن ليس ذكاؤه من النوع الخالق البكر ، فهو يقلّب المعنى الواحد على أشكال متعددة ، فيهرّك تفتّته في القول أكثر مما يهرّك ابتكاره للمعنى ، وإن شئت فقل إن لسانه أمهر من عقله . خياله محدودٌ ، وغير مُتوّع ، فقلما يرسم له خياله عيشة خيرا من عيشته ، ... لذلك لم يعرف المثل الأعلى لأنه وليد الخيال ، ولم يضع له في لغته كلمة واحدة دالة عليه ، ... وقلما يسبح خياله الشعري في عالم جديد يسقى منه معنى جديداً ، ولكنه في دائرته الضيقة استطاع أن يذهب كل مذهب ."

والذي نراه فيما عرضنا لك هو أن أصحاب هذه الآراء ، باستثناء أحمد أمين الذي استدرك في موضع آخر من كتابه مفرقاً بين عربيّ الجاهلية وعربيّ الإسلام ، قد خلطوا بين العرب والأعراب من جهة ، وبين حياة العربيّ والأعرابي قبل الإسلام وبعده من جهة أخرى . فليس عرب البادية ، ولا حضر يثرب ومكة والطائف واليمن في الجاهلية بهم أنفسهم بعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية ، لأنه قد طرأ على فكرهم ولسانهم ومخيلتهم تحولات كبرى أحدثها القرآن ، وأحدثها القيم التي أرسنها العقيدة الجديدة ، وأحدثها مخالطتهم عدّة أمم والسنة ذات حجر وعلم وأدب وفنون .

وينبغي أن نسلط الضوء على أمر جوهري أغفله هؤلاء الخللون لشخصية العربي ، ألا وهو خضوعه وولائه غير المتبصر وغير المشروط للمجتمع الأبوي Patriarchal society الذي نشأ فيه . ومن طبيعة هذا المجتمع تبجيل الأب (شيخ القبيلة) ، لا باعتباره فوق القانون ، وإنما باعتباره - حيث لا قانون - القانون نفسه . ولم يكن هذا الأب المبجل بحاجة إلى تأكيد مكانته السامية ، شبه الملكية على غرار لويس الرابع عشر ، الملك الفرنسي الذي كانت كنيته : "الملك الشمس" Le Roi Soleil لأن هذا الأب العربي كان بمثابة الشمس بالفعل التي يدور في فلكها التابع من الأفراد . بيد أن الفنان العربي الجاهلي (الشاعر) ، الواقع في ربقة الهيمنة الأبوية على

الأقدار والمصائر ، لم يكن في جميع الأحيان مُصانِعاً لأبيه ، منافقاً له ، محتاجاً إلى الارتزاق بقُته من طريق تملُّق هذا الكبير المَهيب بمثل ما اضطرَّ إلى ذلك جُلُّ شعراء العربية بعد الإسلام الذين جاهدوا من أجل ادِّخار يد لهم في بلاط السلطان ، فوَلَّوْا وجه قُتهم شطره ، وأوَلَّوْا المديح في شعرهم خير عناية ، ولَجَّوْا فيه حتى أصبح أشهر أغراض الشعر العربي في تاريخه المديد .

وفي تاريخ الأدب الجاهلي شواهد غير قليلة على نبرات التمرد والرفض لمبدأ توظيف الشعر والشاعر بوقاً إعلامياً ودعائياً للقبيلة ، وهي نبرات تعلو فيها ذاتية الفنان فوق كل اعتبار . وسنلمس ذلك بجلاء عندما نعرض لشعر امرئ القيس المليك الضليل المارق الذي لم يُرد غير وجه الفن فخرَجَ عن طَوْع أبيه حَجَرَ سَيِّد قومه ومَلِكهم ؛ وسنلمسه أيضاً في شعر الغلام المقتول طرفة بن العبد ، وفي شعر الصعاليك ، والمُتَمِّين ، وخُلَعاء القبائل ، والأعرية (الذين سَرَى إليهم السواد من أمهاتهم) ، وغيرهم .

وإننا نرى أنه لو كان الخيال الشعري الجاهلي - الذي يشكك بعض النقاد في خصوصيته - قد تُرك على سجيته البرينة فيما تلاه من عُصور ، فأتى له النمو الطبيعي للفن الحر المرتفع عن التمرُّغ عند أعتاب السلاطين أملاً في الجود والعطاء ، لكان بين أيدينا اليوم من الشعر العربي ما يفوق كل الدُّرر واليتميمات والروائع التي وقعت لنا منه . ولم يكن هذا الغلو في التملُّق البغيض إلا انحناءً ، بل سجدة للخيال الفني مديدة ، بطول تاريخ الشعر ، ولعنة ، وآفة ، وكارثة لحقن به جميعاً . فإن الفن حرية لا غير ، بل هو مطلق الحرية ، وصدق كُله ، مطلق الصدق ، و تلقائية ذاتية خالصة تُنظِّمها الصنعة ، وتُصلح من شأنها ، ولكنه لا يبدأ من الصنعة ولا ينشع منها . والبطل المغوار الذي يجتاز المفاوز والأدغال والأهوال إلى مراتع الحرية والصدق والتلقائية هو خيال الفنان بغير شك . أما النفاق والمصانعة فلا بُدَّ لهما من الصنعة في الحُلِّ الأول ، فينكص الخيال على عَقِيته ، وتُكَلِّف الصُّور ، ويتحوَّل ولأه الفنان عن ملكيته إلى

^١ نَحْنَعُ دُرَّةً عَلَى دُرٍّ أَوْ دُرَرٍ .

جِيءَ وما يثقله من نائل يلقى به إليه الكبيرُ الذي يصبحُ جمهوره الأوحَدَ وهمَّه المقيمُ
وشغله الشاغلُ.

هذه حالُ الشعرِ العربيِّ بعدَ قيامِ الدولةِ الإسلامية ، وبالأحرى بعدَ إقحامِ بدعةِ
المُلْكِ على الحكومةِ الإسلامية . وهي البدعةُ التي استهلَّت بها دولةُ الطُّلُفَاءِ الأُمَوِيَّةُ
حُكْمَهَا ، وأورَثَهَا العباسيُّنَ حتى صارت سُنَّةً احتذاها كلُّ من حَكَمَ بعدهم .

أما الشاعرُ الجاهليُّ - وإن عَرَفَ المديحَ وطَرَقَهُ - فقد صَرَفَ جُلَّ هَمِّهِ إلى الشعرِ
الغنائيِّ ، وقد كان الشعرُ الجاهليُّ غنائياً رَدَّدَتْهُ القِيَانُ ، وتعدَّدَتْ أغراضُه بين الحماسةِ ،
والمراثيِّ ، والنسيبِ ، والمهجاءِ ، والأضيافِ ويلحقُ بهم المديحُ ، وغيرُ ذلك .
وكانَ جمهورُ الشاعرِ الجاهليِّ الشعبُ العربيُّ في الأسواقِ الكبيرةِ للشعرِ ، وكان
المُحَكِّمونَ في جودةِ هذا الشعرِ ، والمُقَوِّمونَ له سادةُ بُلُغَاءِ ذوى خَطَرٍ في قومهم بلا
شكٍّ ، مُجَرَّدِينَ بمثلِ ما الشاعرُ مُجَرَّدٌ من شُبْهةِ المُلْكِ والمنفعةِ . وقد كانَ في الجاهليِّينَ ،
كما قَدَّمْنَا ، شعراءُ أمراءَ كامرئ القيسِ ، بمثلِ ما كانَ فيهمُ الصعاليكُ المنشقونَ على
عشائِرهم ، الهائمونَ على وجوههم في الأرضِ ، و منهم التَّهَابُونَ للقوافلِ الذين تَبَوَّأُوا
بنعمةِ الشعرِ الجاهليِّ عن إغراقِ ذاتِ الشاعرِ في مَمِّ عَشيرتهِ إلى إعلاءِ شأنِ هذه الذاتِ
الشاعرةِ فوقَ العصبيَّةِ القبليةِ ، مما دَفَعَ قبائلهم إلى طردِهِم وإقصائِهِم والتَّنَكُّرِ لهم فيملا
يشبهُ الطردَ من رحمةِ الكنيسةِ أو المعبَدِ اليهودي Excommunication الذي عرفتهُ القرونُ
الوُسْطَى . ولقد كانت هذه النغماتُ الذاتيةُ الشاردةُ في جَوْقةِ الشعرِ العربيِّ براعمَ
واعدةٍ بمستقبلِ زاهرٍ لفنونِ الأدبِ العربيِّ قاطِبةً . وربما أتاحَت للشعرِ التمثيليِّ الذي
ابتكرتهُ اليونانُ ، وجَهَلَتْهُ العربُ ، أن يأخذَ نصيبَه من اهتمامِ الشاعرِ العربيِّ في صدرِ
الإسلامِ أو العصورِ المتأخرةِ منه فيما نَقَلَت العربُ واقتبست من اليونانِ وأضافت إليه
وطوَّرت ، ثُمَّ صَدَّرَت من علومٍ وفنونٍ ومعارفَ .

^١ شرفي خفيف : العصر الجاهلي ، ص ١٩٥ .

ولك أن تتخيل المنحى البياني لنمو فن عربي كانت هذه إرهاباته المبشرة، إذ كانت الملكة الشعرية في الجاهلية بعد مراهة عن الأغراض، ذات كبرياء مَصُون، وأتفة لا تُخْفِضُ لغير وجه الفن جناحاً من الذل. إلا أن تصارييف الدهر ما عثمت أن حوّلت دقة الحكم في الإسلام إلى قبضة الملك العضوض للأُمويين. وقد كانت هذه آفة الدولة الإسلامية إذ ابتليت بالطلاق - وهم أسوأ المسلمين - من البيت العبشمي الذين عملوا جاهدين على تكريس المجتمع الأبوي، فبطشوا وعصفوا بكل من سوّلت له نفسه أن يماثلهم، فترعرع الخوف والنفاق في نفس الشعب العربي، بعد أن تقضى عصرُ المروءة والتخوة الذي شهد أمجاد الخلافة الراشدة يوم كان أبو بكر يدعو المسلمين إلى أن يعينوه إن أصلح وأن يقوموه إن أخطأ، ويوم لم يجد الفاروق عمر غضاضة في أن يلوح له عربي بضرب عنقه إن تكب جادة الصواب.

وقد كان عمر بن الخطاب من خير الساسة الذين تفهموا شخصية العرب، وسبروا غورها فطوعوها للفكر الوافد عليهم من أقطار السماء في رسالة محمد، ومن أقطار الأرض التي دانت لهم بعد أن فتحها الله عليهم. ويؤثر عن عمر أنه القائل: "إن العرب لا تصلح ببلاد لا تصلح بها الإبل".^١ وبالجملة، إن قلت إن الدكتاتورية قد أتت على حرية الفن عند العرب، فما جانبك الصواب.

وحسبك أن تقرأ لشاعر عظيم، يكاد أن يكون أمير الشعراء العرب في كل العصور (إن استثنينا أحمد شوقي)، وهو المتنبي حتى تُصاب بالإحباط والأسى. فالرجل يشرع في قصيدته، كما هو معتاد، مستهلاً بالغزل أو الحكمة، فيخلب بك بشاعريته الرقيقة الراقية، وبخياله الجامح بغير حد، ثم لا يلبث أن يفجأك ويفجعك بالوثب إلى المديح، فيخرجك من الاسترسال الجميل الذي استحوذ على مجامع قلبك وشعورك، ولكنه، ويا للعجب، لا يسمح لك بالإفلات من قبضة موهبته الخارقة، لأنه يكون قد ملك عليك نفسك إعجاباً وافتاناً، فلا تلبث أن تتابعه في مديحه الذميم إلى قلبك حتى نهاية

^١ نسبة إلى عبد شمس بن عبد مناف.

^٢ سائر حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، تصحيح وضبط أحمد أمين وأحمد الزين، المكتبة العصرية، بيروت، صيدا الجزء الثاني

القصيدة ، مُعْجَباً على كُلِّ حَالٍ بِأَخِيلَتِهِ وَصُورِهِ وَ أَلْفَاظِهِ أَيْمًا إِعْجَاب ! ثُمَّ تَرَاكَ جَالِساً
إِلَى نَفْسِكَ تَسْأَلُهَا فِي حَيْرَةٍ وَأَسْفٍ : " أَمَا كَانَ أَخْلَقَ بِهَذَا الشَّاعِرِ الْفَحْلِ أَنْ يَسْتَعْرِضَ
هَذَا الْإِعْجَازَ الْفَنِّيَّ بِأَنْ يَصْرِفَهُ إِلَى غَرَضٍ آخَرَ غَيْرِ الْمَدِيحِ وَالْمَصَانَعَةِ ؟! " ^١
وَانْظُرْ إِلَى خِفَّةِ ظِلِّهِ فِي غَيْرِ الْمَدِيحِ إِذْ يَقُولُ :

فَيَا لَيْتَ مَا بَيَّنِّي وَبَيَّنَّ أَحَبِّي مِنْ الْبُعْدِ مَا بَيَّنِّي وَبَيَّنَّ الْمَصَائِبِ
(الطويل)

وإلى قوله العبقري :

حَبِيبُكَ قَلْبِي قَلِيلَ حُبِّكَ مَنْ لَأَى وَقَدْ كَانَ عَذَاراً فَكُنْ أَلَتْ وَافِيَا
(الطويل)

أَلَسْتَ تَرَى أَنَّ الْأَجْدَرَ بِعَمَلٍ كَهَذَا الْفَنَانِ أَنْ يَكُونَ غَسَزِلاً أَوْ وَصَافاً لِلطَّبِيعَةِ أَوْ
لِلْمَشَاعِرِ الْإِنْسَانِيَةِ ؟ أَمَا كَانَ ذَلِكَ أَمْتَعً لِلْجُمْهُورِ وَأَثَرِيٌّ لِلْأَدَبِ الْعَالَمِيِّ ، لَا الْعَرَبِيِّ
وَحْدَهُ ؟

وَقَدْ عَرَفَتْ فَنُونُ الْغَرْبِ رِعَاةَ الْفَنِّ Les mécènes d'art من أمثال أسرة ميديتشي
الْإِيطَالِيَّةِ ، وَفَرَنْسُوا الْأَوَّلَ الْمَلِكِ الْفَرَنْسِيِّ الَّذِي لُقِّبَ بِأَبِي الْأَدَابِ ، وَمَنْ إِلَى ذَلِكَ
مِنْ أُمَرَاءِ وَ مَلُوكٍ مُتَوَرِّثِينَ رَعَوْا الْمَوْسِيقَى وَالشَّعْرَ فِي بِلَادِ مَمْلَكَتِهِمْ ، وَ أَجْزَلُوا الْعَطَاءَ
لِفَنَانِيهِمْ ، وَ إِنَّمَا لَوَجْهَ الْفَنِّ وَالْحَضَارَةِ لَا غَيْرَ ؛ فَلَمْ يَقَعْ لَنَا فِيمَا وَقَعَ مِنْ رَوَائِعِ الْبُشْعْرِ
الْأُورُوبِيِّ عَمَلٌ وَاحِدٌ مُتَبَدِّلٌ فِي التَّغْنِي بِمَآثِرِ مَلِكٍ مَدُوحٍ أَوْ كَبِيرٍ سَخِيٍّ الْيَدِ . فَهَلْ كُنْ
الْعَيْبُ فِي مَلُوكِ الْعَرَبِ أَمْ فِي شُعُوبِهِمْ ، أَمْ فِي الشَّخْصِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ ؟

العاربة - المستعربة ^{٢، ٣} :

الْعَرَبُ الْعَارِبَةُ أَوْ الْعَرَبَاءُ ، كَمَا أَسْلَفْنَا فِي الْقِسْمِ السَّابِقِ ، هُمُ الْعَرَبُ الْخُلُصُ ، وَهُمْ ،
كَمَا يَذْكَرُ النَّسَابُونَ ، عَرَبُ الْيَمَنِ بَنُو قَحْطَانَ الَّذِينَ يُظَنُّ أَنَّهُمْ مِنْ نَسْلِ هُودٍ عَلَيْهِ

^١ Collection littéraire Lagarde et Michard XVIème Siècle, Bordas, Paris, 1985, p.6

^٢ أحمد أمين (السابق) ص ٥ - ٨ .

^٣ الفصل في تاريخ الأدب العربي ص ١٠ - ١٤ .

السَّلام ، يمتازون من سائر العربِ بالنقاءِ العرقيِّ ، و يختلفون عنهم في اللغة و الحضارة .

أما العربُ المستعربةُ أو المتعربةُ فهم عربُ الشَّمالِ من بني عدنانَ من نسلِ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ عليهما السَّلام . ولم تكن العربيةُ لغةَ إسماعيلَ الأصليَّة ، وإنما نطقَ بها لما رَحَلَ مع أبيه إبراهيمَ إلى الحجاز ، وتزوَّجَ من جُرْهُم ، وهي قبيلةٌ يمنيةٌ ، وتعلَّم منهم ، وتكلَّم بلسانهم .

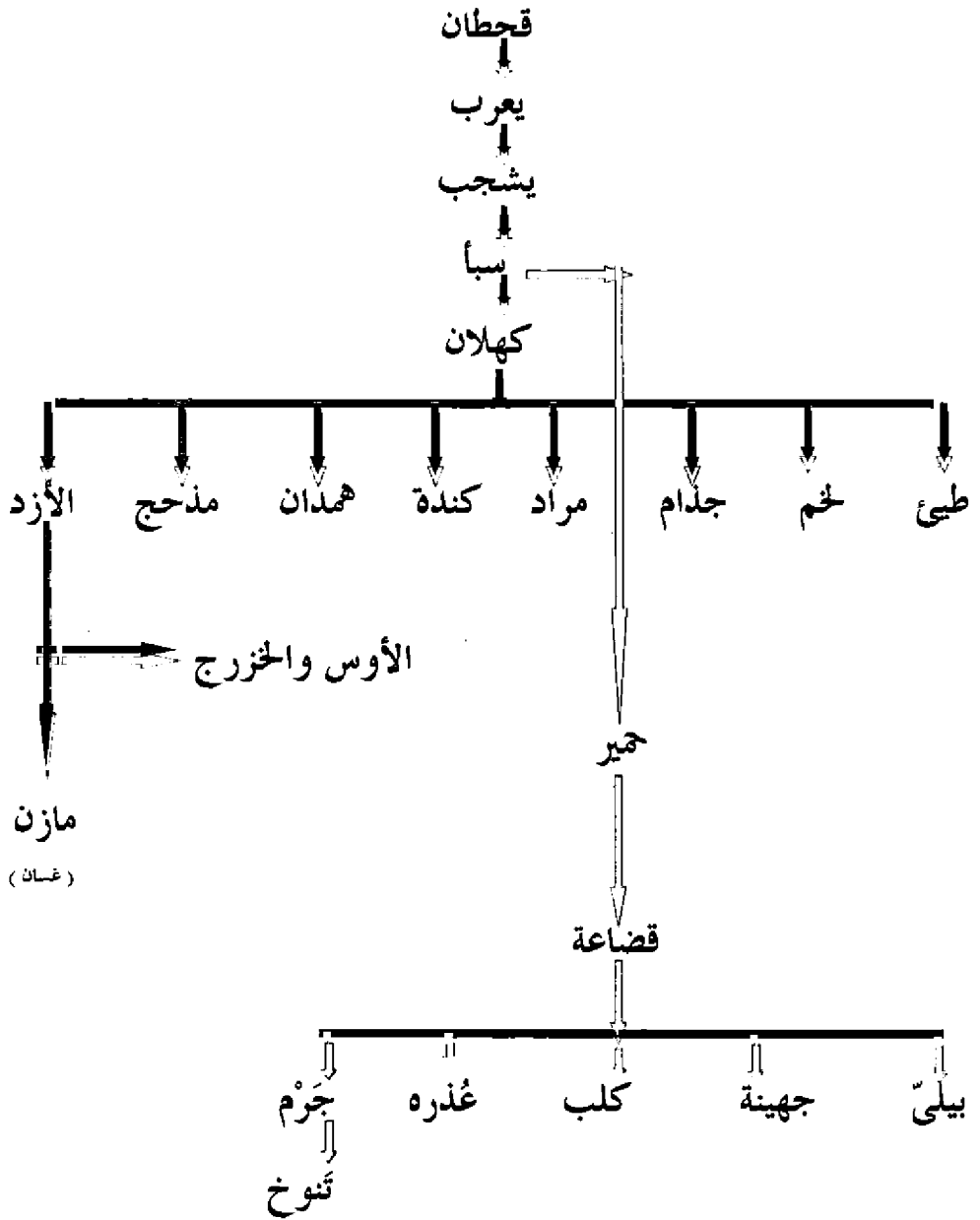
وبعد انفجار سدِّ مأرب نحو سنة ١١٥ ق.م. نزحَ القحطانيون إلى الشمال^١ ، و قصدَ بنو ثعلبةَ بنِ عمرو يثربَ ، وكان من بينهم الأوسُ والخزرجُ ؛ ونزلت خزاعةُ مَكَّةَ وأجلت جُرْهُمًا عنها ؛ و نزلَ جفنةُ بنُ عمرو وبنوه الشامَ وسُمُوا غسانةً نسبةً إلى ماءٍ هناك يُدعى غسانَ ؛ ونزلت قبيلةُ لخمِ بنِ عديٍّ الحيرةَ بالعراق ، ومنها نصرُ بنُ ربيعةَ أبو الملوكِ المناذرةَ ؛ وحلت طيءٌ في جَبَلَى أَجَا و سَلَمَى المعروفين اليومَ بجبلِ شَمَر .

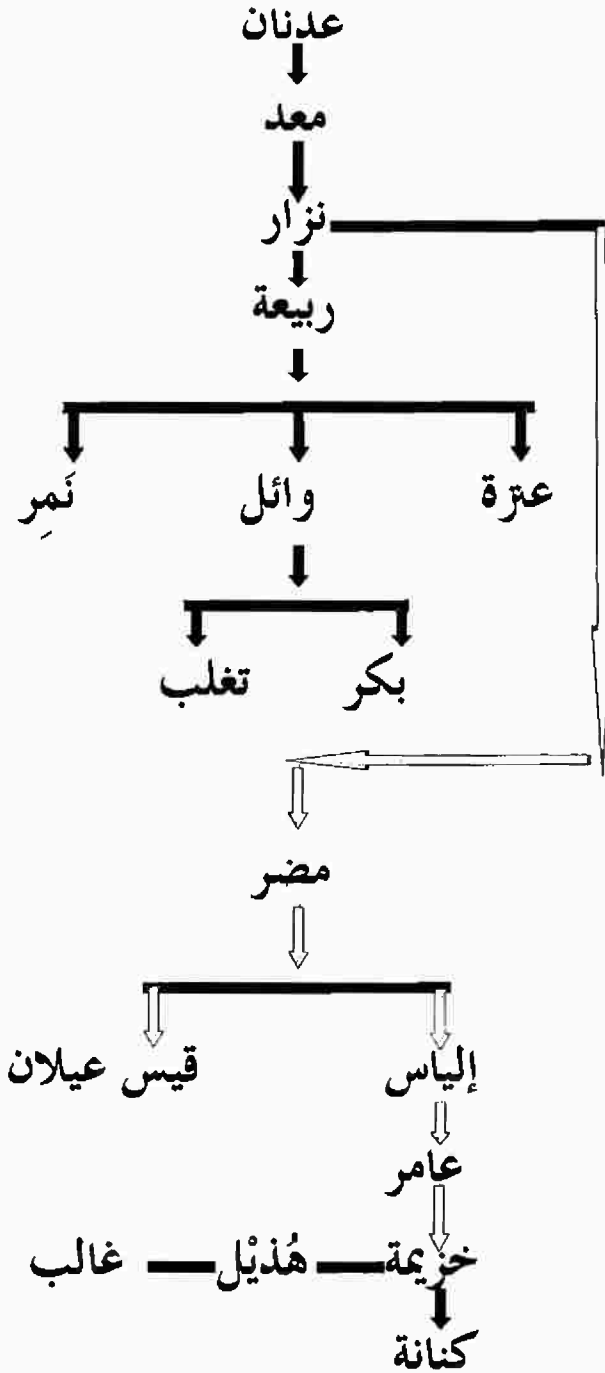
وهكذا اختلطَ الجنوبيون بالشمالين بالجوارِ ، والمصاهرةُ ، والحروبُ ، والتجارةُ ؛ إلا أن هذا الامتزاجَ لم يَفْلُحْ في إذابةِ البغضاءِ ، والتنافرِ بين السُّلَالتينِ حتى بعدَ ظهورِ الإسلام . ويذكر النسابون أن قحطانَ أبا اليمنِ قد نَسَلَ شعبينِ عظيمينِ هما كَهْلَانُ وحِميرٌ ، وأن عدنانَ نَسَلَ كلاً من ربيعةَ ومُضَرَ .

وتفرَّعَ من شعبِ كهلانَ فروعٌ عدةٌ أشهرُها طيءٌ ، وهَمْدَانُ ، ومَذْحِجٌ ، و عاملةٌ ، و جُذَامٌ . وتفرَّعَ من شعبِ حميرَ قُضاعةٌ ، وتَنُوخٌ ، وكَلَبٌ ، و جُهَيْنَةُ ، و عَذِرَةُ المشهورةُ بالعشقِ العفيفِ .

أما ربيعةُ فأشهرُ قبائلِها أَسَدٌ ، ووائلٌ (و منهم بكرٌ و تغلبٌ طرفا حربِ البسوسِ الشهيرةِ) ؛ وأما مُضَرَ فأشهرُ فروعِها قَيْسُ عَيْلانَ ، و عَيمٌ ، و هُذَيْلٌ ، و كِنانةٌ .

^١ حنا الفاعوري : تاريخ الأدب العربي ، منشورات المكتبة البولسية ، لبنان ، الطبعة الثانية عشرة ص ١٣ .





ممالك وأمم^١:

كانت الجزيرة العربية في القرون الأولى بعد ميلاد المسيح بمثابة ما يسميه العسكريون في عصرنا بالمنطقة الآمنة المتروعة السلاح لأنها كانت تفصل بين قوتين عظميين تقاسمتا مناطق النفوذ في زمانهما: إمبراطورية الفرس شرق الجزيرة ، وإمبراطورية الروم غربها. وقد اقتضى اتزان القوى وتعادل الكفتين في ذلك النظام الثنائي الأقطاب Bipolar system عدم الاكتفاء بالمانع الصحراوي الشاسع الفاصل بين حدودهما ، والذي لم يُفلح في صد الأعراب عن الإغارة عليهما الفينة بعد الفينة . فلم يكن لنظرية الأمن بين الدولتين بُدٌّ من تكريس العمق الإستراتيجي لكل منهما بإقامة دولة تابعة تكون خط الدفاع الأول الذي يقيها عدايات جارتها الكبرى من جهة ، وعاديات الأعراب من جهة أخرى .

واقضت طبيعة الأمور أن تكون هاتان الدولتان من عرب الجزيرة ، وإلا لكانتا مجرد جيب فارسي في الشرق ، وجيب رومي في الغرب ممتدتين في البادية بغير جدوى ، وربما أضرتا باستقرار القطبين بالتقريب بين تخومهما ، بما يُيسر لكليهما سرعة الكر على الآخر ، والتيل منه . ثم إنه لم يكن مما يتفق ومنطق الأمن أن يكون عرب هاتين المملكتين التابعتين من عربان البادية الممتج ، وإنما من أرقى شعوب العرب حضارة ، ولو كانت حضارة دثرت في مهدها الأول فيمن عصف به الدهر من أُمم . لذلك اصطفى الفرس المناذرة اللخمين^٢ ، وهم من عرب اليمن في الأصل ، واصطفى الروم الغساسنة^٣ ، وهم بنيو الأصل أيضاً ، لإقامة الدولتين المانعتين . وكان ولاء المناذرة للفرس ، وولاء الغساسنة للروم ولاء مُزدوج الصبغة ، إذ كان سياسياً ودينياً في آن واحد ، حيث كانت علاقة كل قطب بتابعه أشبه بعلاقة الإقطاعي بالمقطع التابع له suzerain - vassal القائم على حماية حدوده ومصالحه.

^١ د. شوقي ضيف (الساق) ص ٤٠ - ٤٩

^٢ من قبيلة لخم من عرب الحيرة.

^٣ من قبيلة مازن .

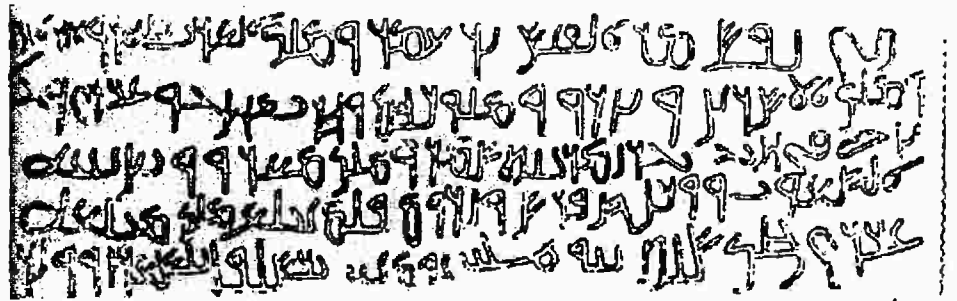
وتُعَدُّ أيامُ الحارثِ بنِ جبلةٍ أزهى عصورِ الغساسنة ، إذ امتدَّت مملكتُهم في عهده من البتراء (البطرا) شرقى الأردن إلى الرصافة شمالى تدمُر المشهورة بملكيتها زنوبيا (الزبَاء) التي ثارت على الرومان قبلَ عهدِ الحارثِ بنِ جبلة بزمان . وقد اعتنقَ الغساسنةُ النُصرانية منذُ القرنِ الرابعِ الميلاديّ ، وأقنَعَ الحارثُ الرومانَ بتعيينِ يعقوبَ البرادعى أسقفًا على الكنيسة المونوفيزيتية السورية ، ثم لم يلبث أن شقَّ عصا السولاة الدينيَّة للروم باعترافه المذهبَ المونوفيزيقيَّ المخالفَ لعقيدتهم ، فقطعوا عنه المعونة والتأييد ، ثم صالحوه ، ثم ما عثَموا أن اعتقلوه ونَفَوْهُ إلى صقلية في أواخرِ القرنِ السادسِ الميلادي .

ومنذُ ذلك التاريخ تمزَّقت دولةُ الغساسنة كلَّ مُمزَّق ، وكان آخرَ ملوكهم جبلةُ بنُ الأنهم الذي عاصرَ الفتوحَ الإسلامية ، وحاربَ في صفوفِ الروم ، ثم أسلمَ وعادَ فتصنَّرَ في عهدِ عمر بنِ الخطاب ، ورَحَلَ إلى بيزنطة^١ .

أما المناذرةُ اللخميون فقد كانوا من عربِ العراقِ المنحدرين من أصولٍ يمنيةٍ كما أسلفنا ، وقد نصَّبهُم الفرسُ الساسانيون على الحيرة ، وهي تحريفٌ لكلمةٍ حرثا السريانية بمعنى المخيم أو المعسكر ، وكانت مِنطَقَةً خِصْبَةً يرويها الفُرات . ويقلل إن كِسرىَ الفرسِ سابور هو الذي نصَّبَ عمرو بنَ عدى ملكاً أوَّلَ للمناذرة في القرنِ الثالثِ الميلادي ، وهو ابنُ أختِ جذيمة الأبرش أشهرِ الملوكِ الأسطوريين هذه المنطقَةَ قبل قيامِ دولةِ المناذرة . وكان جذيمة ، فيما يتناقلُ الرواة ، معاصراً للزبَاء (زنوبيا) التي ورَدَ ذكرُها من قبل .

^١ المونوفيزية Monophysitism المسيحية مذهب اليعاقبة إلى أن لاهوت المسيح و ناسوته طبيعة واحدة ، و هو في عصره أقدم واحد . وذلك بخلاف مذهب النسطورية (نسبة إلى الكاهن نسطوريرس) إلى أن الله واحد ذو أقانيم ثلاثة هي الوجود و العلم و الحياة ليست زائدة على ذاته ، و لا هي هو ، و أن في المسيح طبيعتين متميزتين .
^٢ شرقى ضيف (السابق) .

وقد كَشَفَ الأَثَرِيُّونَ عِنَظَقَةَ التَّمَارَةِ نَقُوشاً عَلَى شَاهِدٍ قَبْرِ لِأَحَدِ مُلُوكِ المَنَازِرَةِ يُدْعَى
 امراً القَيْسِ (ابن عمرو بن عَدِي) ، وَهِيَ أَقْدَمُ كِتَابَةٍ بِالْخَطِّ الْعَرَبِيِّ الْأَوَّلِ ، يُوْرُخُهَا
 بِسَنَةِ ٣٢٨ م ، وَتَشْفَ أَحْرُفُهَا عَنِ أَصْلِهَا المَأْخُودَةِ عَنْهُ وَهِيَ الكِتَابَةُ التَّبِطِيَّةُ .



نَقُوشُ التَّمَارَةِ (٣٢٨ م) وَهِيَ قَصْرٌ كَانَ لِلرُّومِ فِي الْحَرَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ جَبَلِ الدَّوْرُزِ ، وَقد وَجِدَتْ عَلَى قَبْرِ
 امْرِئِ القَيْسِ بْنِ عَمْرِو الَّذِي كَانَ يَدِينُ بِالْوَلَاةِ لِلْفَرَسِ وَ الرُّومِ معاً ، أَمَا مَنْ خَلَفُوهُ فَقَدْ دَانُوا بِالْوَلَاةِ لِلْفَرَسِ
 وَحَدَّثَهُمْ . وَ يَلَاخُظُ عَلَى الْكَلِمَةِ الْخَامِسَةِ فِي التَّرْتِيبِ بِالسَّطْرِ الْأَوَّلِ أَمَّا كَلِمَةُ "بِر" التَّبِطِيَّةُ الَّتِي تَعَادِلُهَا كَلِمَةُ
 "بَن" أَيْ ابْنِ الْعَرَبِيَّةِ . وَ قِرَاءَةُ السَّطْرِ الْأَوَّلِ هِيَ : "هَذَا ضَرِيحُ امْرِئِ القَيْسِ بْنِ عَمْرِو مَلِكِ الْعَرَبِ كُلِّهِمُ الَّذِي
 اعْتَصَبَ بِالنَّجَاحِ إلخ...

وَمِنْ أَشْهُرِ خُلَفَاءِ امْرِئِ القَيْسِ النِّعْمَانُ الْأَعُورُ أَوْ السَّائِحُ الَّذِي شَيَّدَ قَصْرَ
 الْحَوْرَثِيِّ وَ السَّدِيرِ ، وَقَصَعَهُ مَعَ سَيِّمَارِ الَّذِي صَمَّمْ لَهُ الْخَوْرَنْقَ مَعْرُوفَةً ، وَجَرَتْ مَجْهَى
 الْأَمْثَالِ عِنْدَ الْعَرَبِ فِي قَوْلِهِمْ "جَزَاءُ سَيِّمَارَ" .

وَ كَمَا خَرَجَ الْغَسَّاسَةُ عَلَى الْوَلَاةِ الدِّيْنِيِّ لِلرُّومِ خَرَجَ الْمَنَازِرَةُ عَلَى الْفَرَسِ فِي عَهْدِ
 الْمُنْذِرِ بْنِ مَاءِ السَّمَاءِ (نَحْوَ ٥١٤ - ٥٥٤ م) الَّتِي سَاءَتْ عِلَاقَتُهُ بِقَبَازِ مَلِكِ الْفَرَسِ
 فَعَزَلَهُ ، إِذْ أَرَادَ أَنْ يَفْرِضَ عَلَى الْمَنَازِرَةِ الدِّيَانَةَ الْمَزْدَكِيَّةَ الَّتِي اعْتَقَهَا ، وَ اتَّخَذَهَا دِيْنًا
 رَسْمِيًّا لِدَوْلَةِ الْفَرَسِ . ثُمَّ خَلَفَ قَبَازَ كِسْرَى أَنْوَشِيروَانِ الَّذِي كَانَ يُبْغِضُ الْمَزْدَكِيَّةَ فَأَمَرَ
 الْمُنْذِرَ عَلَى الْحَيَرَةِ ثَانِيَةً ، وَخَاضَ حَرْوِيًّا مَعَ الْحَارِثِ الْكَنْدِيِّ أَمِيرِ كِنْدَةَ وَأَبْنَائِهِ ، انْتَهَتْ
 بِالْقَضَاءِ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا . وَقد أَبْلَى الْمُنْذِرُ بِلَاءً حَسَنًا فِي الْحَرْوِبِ الَّتِي شَهِدَ ضِدَّ الرُّومِ
 وَالْغَسَّاسَةِ حَتَّى أَبْرَمَتْ بِيْزَنْطَةُ مَعَ فَارَسِ مَعَاهِدَةً سَنَةَ ٥٣٢ م أَدَّى بِمُقْتَضَاهَا الرُّومُ
 لِلْمُنْذِرِ مَا أَدَوهُ لِلْفَرَسِ مِنْ أَمْوَالٍ . وَتَحَاكُّ الْأَسَاطِيرُ حَوْلَ هَذَا الْمَلِكِ اللَّحْمِيِّ ، فَيُقَالُ

^١ هَذَا بِخِلَافِ امْرِئِ القَيْسِ الشَّاعِرِ الَّذِي أَتَى بَعْدَ ذَلِكَ بِزَمَنِ طَوِيلٍ .

^٢ بَقْضٌ يَبْغِضُ ، وَابْغَضَ يَبْغِضُ : كَلَامًا صَحِيحًا .

إنه كان رجلاً مضطرب المزاج تتناوبه نوبة نعيم في اليوم ، فما تطلّع عليه شمس اليوم التالي حتى تنال منه نوبة البؤس . و كان القتل أيسر شيء عليه في نوبات بؤسه ، فيحكى أنه قتل نديمين له^١ و هو لئيل ، وكان من سوء طالع الشاعر عبيد بن الأبرص أنه أدركه في يوم من أيام بؤسه فقتله . وظل المنذر يحارب الغساسنة إلى أن قُتل في يوم حليلة المشهور في أمثال العرب : " ما يوم حليلة بسر " .

و خلفه ابنه عمرو بن هند (٥٥٤ - ٥٦٩ م) ، الذي كانت العرب تلقبه بالمرحوق لأنه برّ بنذر له في يوم أواره باليمامة ، و أحرق مائة رجل من عيم . و قد كانت الحيرة تحت ولايته مركزاً أدبياً ذا خطر ، اختلف إليه الكثير من الشعراء ، منهم عمرو بن قميئة ، و المسيب بن علس ، والحارث بن جلة ، و عمرو بن كلثوم التغلبي . و يقال إن ليلى أم عمرو بن كلثوم تعرضت لشيء من التحقير والمهانة في بلاط عمرو بن هند ، فما كان من ابن كلثوم إلا أن انقضّ عليه فقتله .

ومن أواخر ملوك الحيرة النعمان الثالث بن المنذر الرابع ، وكنته أبو قابوس (٥٨٠ - ٦٠٢ م) ، وهو أول من تنصر من ملوك الحيرة اللوثيين ، وامتد سلطانه إلى البحرين و عُمان . وقد وسع بلاط ملكه طائفة من شعراء الجاهلية مثل أوس بن حجر ، و النخل الشكري ، و لبيد بن ربيعة ، وغيرهم . ولم يكن النعمان بالرجل اللين العريكة الذي يصادف هوى لدى من يفترض أنه حام حدود دولتهم ، و أمين على مصالحهم ، فاستدرجه كسرى الثاني إلى حاضرة الفرس وقتل به ، حتى يُقال إنه رمى به تحت أرجل الفيلة فمزقته إرباً ؛ ثم ولّى على الحيرة إياس بن قبيصة الطائي ، وهو من غير بيت النعمان . و ثارت قبيلة بكر بالفرس ، واقتضت منهم لمقتل النعمان وسحقهم شر سحقة في يوم ذي قار الأشهر .

وفي شمال نجد قامت إمارة ثالثة بين الحيرة و الغساسنة هي إمارة كندة ، و ينتمي قومها أيضاً إلى عرب الجنوب ، و قد بقيت شعبة منها محضرموت إلى أن ظهر الإسلام . وأشهر ملوكها حُجر الذي اشتعل في عهد خلفه عمرو أوار الحرب بين بكر و تغلب ،

^١ هما القرئان اللذان يُذكران في أشعار العرب .

وهي حربُ البسوسِ التي دامت أربعين عاماً ، و بدأت بقتلِ جسّاس بن مُرّة كُلياً
انتقاماً لِشاةِ البسوسِ خالةِ جسّاس ، وكان كُليبٌ قد رمى الشاةَ بسهمٍ في ضَرْعِها
فأرداها قتيلة .

وإلى كِنْدَةَ ينتمي أمير الشعر الجاهلي امرؤ القيس الذي كان أبوه آخرَ ملوكِها .
أما في الجنوبِ الغربيّ لجزيرةِ العربِ بأرضِ اليمنِ ، فقد عاصرت دولةَ الحميريينَ
ممالكَ غَسَّانَ ولَحْمَ و كِنْدَةَ . وتاريخُ اليمنِ موغلٌ في القَدَمِ مقارناً بتاريخِ سائرِ الجزيرةِ
العربيةِ . فقد وُجِدَت نقوشٌ بابليةٌ ترجعُ إلى سنة ٢٤٠٠ ق م تُسَجِّلُ هزيمةَ ملكِ
المعنيينَ على يدِ نارام سِنِ الحاكمِ البابليِّ . وكانت ماجانُ (معين) عاصمةَ المملكةِ
المعينيةِ ؛ وقد عُرفَ خمسةٌ وعشرونَ من ملوكِها من نقوشِ عربيةٍ يرجعُ تاريخُها إلى سنة
٨٠٠ ق م . ويسجِّلُ نقشٌ آخرُ يرجعُ إلى سنة ٢٣٠٠ ق م قيامَ مملكةٍ أخرى باليمنِ
هي مملكةُ سَبَأَ ، وعاصمتُها مأربُ . وقصةُ ملكِها بلقيسَ مع النبيِّ سليمانَ مشهورةٌ في
القرآنِ ، وقد كانت رحلتُها إلى سليمانَ نحوَ سنة ٩٥٠ ق م .

ويبدو أن كارثةَ انهيارِ سدِّ مأربَ قُربَ نهايةِ القرنِ الثاني قبلَ ميلادِ المسيح (١١٥ ق م)
قد أودتَ بِمُلْكِ سَبَأَ إذ هاجمتها مملكةُ حمير وحكمت بلادَ اليمنِ وسيطرت على طريقِ
القوافلِ التجارية ، مما أثارَ حَقَقَ أغسطس الذي جرَّدَ قِلَقاً بقيادةِ إليوس جالوس Aelius
Gallus للاستيلاء على مأرب . إلا أن الأدلاءَ العربَ أضلُّوا الجيشَ الرومانيَّ في مجاهلِ
الباديةِ حتى أبادَهُ القَيْظُ والظَّمُ والمرُ . ولكنَّ جيشاً رومانياً آخرَ استولى على عَدَنَ ،
وسيطرت رومةٌ بذلكَ على التجارةِ بينَ مصرَ والهندِ (وهذا ما فعلته بريطانيا تماماً في
العصرِ الحديثِ)^١.

وفي القرنِ الثاني قبلَ الميلادِ عَبَرَ الحِميريونَ البحرَ الأحمرَ ، واستعمروا الحبشةَ فمزجوا
دماءَ الأحباشِ بالدماءِ الساميةِ ، و تلَقَّت الحبشةُ المسيحيةَ من مصرَ وبيزنطة . وبلغت
سفنُهم التجاريةَ الهندَ وسرنديبَ، وكانت سبعُ ممالكَ صغرى تدينُ بالسيادةِ للنجاشي^٢.

^١ ويل ديورانت : قصة الحضارة (السابق) مجلد ٤ ، ج ٢ ، ص ٨ - ١٠

^٢ Gibbon : The Decline and Fall of The Roman Empire, vol. 4 p. 322

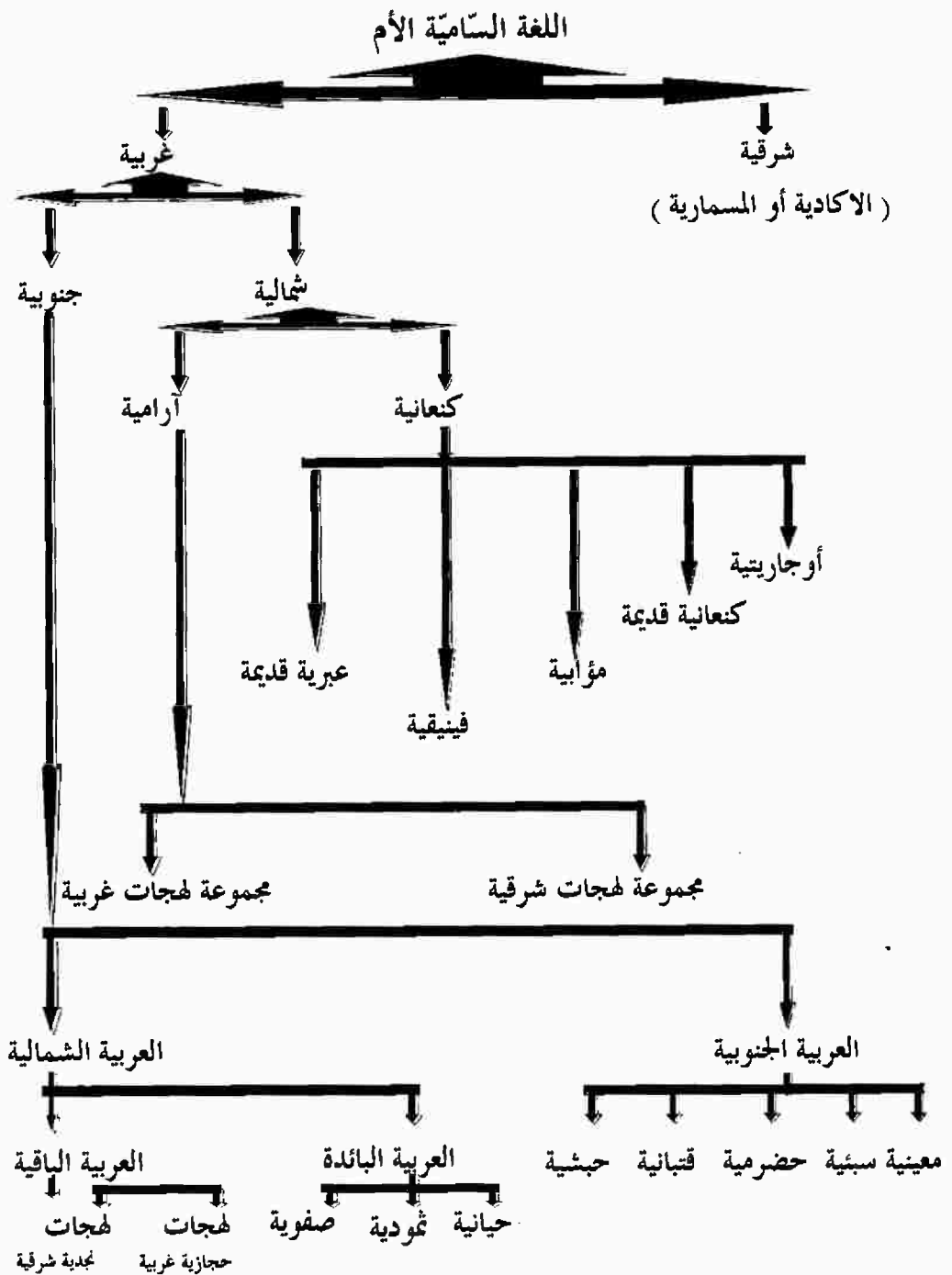
و قد اعتنق ذو نواس مَلِكُ الحَمِيرِينَ اليهوديةَ واضطَهَدَ المسيحيينَ اضطهاداً بالغَ الشراسة . و قد أوردَ الذُّكْرُ الحَكِيمُ قصةَ أصحابِ الأخدودِ وهو المحرقةُ الكبرى التي نصبها ذو نواسٍ للمسيحيين ، وأبادهم فيها . و لما استغاثَ المضطهدونَ في اليمنِ ببني دينهم الأحباشَ خَفَوْا إلى غوئهم و هزموا ملوكَ حَمِيرَ سنةَ ٥٢٢ م ، و أجلسوا أسرةً حبشيةً على عرشِ البلاد . و تحالفَ جوستينيانَ إمبراطورُ الرومِ مع الدولةِ الجديدةِ ، إلا أن الفرسَ خلَعوا الأحباشَ عن مَلِكِ اليمنِ ، وأقاموا بها حكماً فارسياً سنةَ ٥٧٥ م لم يلبثَ أن سَقَطَ بعدَ نحوِ ستينَ عاماً حينَ فَتَحَ المسلمونَ بلادَ الفرسِ ^١ .

^١ ويل ديورانت (السابق) .

الفصل الثاني

المولد

اللغات السامية^١؛^٢:



^١ د حلمي خليل : مقدمة لدراسة فقه اللغة ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٩٩ ص ١٤٤

د. صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية عشرة، ١٩٨٩، ص ١٧

الجنوب الغربي لجزيرة العرب (اليمن والحجاز ونجد)

أول هجرة سامية إلى الحبشة قبل الميلاد بعدة قرون ول دلت

القرن ٣٦ ق م

القرن ٢٦ ق م

نزوح إلى الشمال ويزوغ الشعوب الكنعانية

تخلف منهم شمال الحجاز قبائل ثمود

تقرئ في كل أثر كبير ل
الوقوف على جانب
مهم من تاريخ اللغات
السامية عمومًا والعربية
خصوصاً.

القرن ١٦ ق م

القرن ٦ ق م

أوائل التاريخ الميلادي

يُعَدُّ العلامةُ شلوتسر Schlozer الألمانيُّ أوَّلَ من أطلقَ لفظَ "سامي" على شعبٍ واحدٍ، من وجهةِ نظرِهِ، ينتظمُ السورِيُّونَ و البابلِيُّونَ و العبرِيُّونَ والعَرَبُ، ويقولُ نصلاً: "منَ البحرِ المتوسطِ إلى الفراتِ، ومن أرضِ الرافدينِ حتى بلادِ العربِ جنوباً، سادت، كما هو معروفٌ، لغةٌ واحدةٌ. وهذا كانَ السورِيُّونَ و البابلِيُّونَ و العبرِيُّونَ والعَرَبُ شعباً واحداً. وكانَ الفينيقيُّونَ (الحامِيُّونَ) أيضاً يتكلمونَ هذه اللغةَ التي أودَّ أن أسَمَّيها اللغةَ الساميَّة."¹

ويستندُ شلوتسر في اقتراحِهِ هذه التسميةَ إلى الإصحاحِ العاشرِ من سفرِ التكوينِ التوراتيِّ الذي يوردُ للنبيِّ نوحٍ عليه السلامُ ثلاثةَ أبناءِ هم سامٌ وحامٌ وياث، كما يوردُ الشعوبَ التي تحدَّرتْ من كلِّ ولَدٍ منهم، فأولادُ سامٍ هم عيلامُ وأشورُ وأرفكشاد ولود و آرام، وقد وُلِدَ لأرفكشاد شيلاشُ الذي أنجبَ عابراً، وعابراً هذا هو أبو العبريين. غيرَ أنه يُلاحظُ أن سفرَ التكوينِ قد اعتمدَ في هذا التقسيمِ على الروابطِ السياسيَّةِ والثقافيَّةِ والجغرافيَّةِ أكثرَ من اعتماده على صلاتِ القرابةِ والروابطِ الشعبيَّةِ. كما يُلاحظُ أن هذا الإصحاحَ يُسجِّلُ الصَّلاتِ بينَ الشعوبِ المختلفةِ التي يعرفُها كاتبُه.²

بيدَ أن الأمانةَ التاريخيَّةَ في أيةِ قراءةٍ للتوراةِ التي بينَ أيدينا اليومَ تقتضيها، من حيثُ هي من وَضَعِ الوُضَاعِ، أن نعتبرَها أدباً توراتياً³ Biblical Literature لا متناً سماوياً كما كانت في أوَّلِ عهدها.

والمُتفقُ عليه بينَ الباحثينَ اليومَ إطلاقُ لقبِ الساميينَ على الشعوبِ الآراميَّةِ والفينيقيةِ والعبريةِ والعربيةِ واليمينيةِ والبابليةِ - الآشوريةِ وما انحدرَ من هذه الشعوبِ من نسل⁴.

¹ August Ludwig Schlozer : Von den Chaldaern , Repertorium für Biblische und Morgenländische , v. 8 , p. 161 , Eichhorn Literature , 1781 .

² د. علي عبد الواحد وافي : فقه اللغة ، دار محضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ص ٦ .

³ مينيوس موسكاتي : الحضارات السامية ، ترجمة د. السيد يعقوب ، الألف كتاب الثاني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص ١٩ .

⁴ Encyclopaedia Britannica , 1991, Biblical Literature and its critical interpretation , v.14 p. 754

⁵ د. علي عبد الواحد وافي (السابق) .

وتتتمي اللغة السامية الأم إلى فصيلة اللغات السامية - الحامية التي تشمل خمس لغات هي السامية المصرية والبربرية والكوشية والتشادية^١.

أما اللغة السامية فإنها تنشعب إلى أربع مجموعات لغوية هي :

(١) الشمالية الطرفية Northern Peripheral أو الشمالية الشرقية ، وهي تشمل اللغة الأكادية نسبة إلى مملكة أكاد التي أقامها سارجون .

(٢) الشمالية الوسطى Northern Central أو الشمالية الغربية ، وتشمل اللغة الكنعانية العتيقة والأمورية والأوجاريتية والفينيقية والبونية ، والجموعة الآرامية ، والسورية القديمة والمحدثة ، والعبرية .

(٣) الجنوبية الوسطى Southern Central وتشمل اللغتين العربية والمملطية .

(٤) الجنوبية الطرفية Southern Peripheral ، وتشمل العربية الجنوبية ولغات شمال الحبشة (إثيوبيا) .

اللغات السامية تاريخياً وجغرافياً :

كانت الأكادية Akkadian أو السامرية (الإسفينية) Cuneiform بلهجاتها البابلية والآشورية لغة بلاد ما بين النهرين منذ نحو ٣٢٠٠ ق م حتى مطلع العصر المسيحي .

بينما كانت اللغات السامية الشمالية الوسطى (الكنعانية والأوجاريتية والأمورية) جارية على لسان أهل فلسطين وفينيقيا وسوريا وما بين النهرين ما بين الألف الثالثة والألف الثانية قبل الميلاد . ومنذ الألف الثانية حتى الأولى قبل الميلاد كانت الفينيقية

- البونية لغة فينيقيا وبعض جزر البحر المتوسط والشمال الأفريقي .

بينما كانت العبرية لغة فلسطين منذ القرن الثالث عشر ق م إلى القرن الثاني الميلادي .

وقد أحيتها الصهيونية في صورة محدثة حيث أصبحت اليوم اللغة القومية لنحو ثلاثة ملايين من الإسرائيليين الذين استعمروا أرض فلسطين وأقاموا دولة إسرائيل منذ سنة

١٩٤٨ م .

أما اللغة المؤابية وقرباتها من اللهجات فقد عاشت في الأردن في الألف الأولى قبل الميلاد ثم دثرت بمثل ما دثرت اليهودية Ya'udi التي جرت على لسان شمال سورية في القرن التاسع قبل الميلاد.

كما بقيت الآرامية على لسان أهل سورية وما بين النهرين منذ القرن الرابع عشر ق م حتى القرن الخامس عشر بعد ميلاد المسيح . و ترجع أقدم نصوصها المدونة إلى القرن التاسع ق م . و من المثير للعجب أنها وجدت في جزيرة فيله (أئس الوجود) بمصر مدونة على البردي في صورة عقود و رسائل ، و كذلك على الخزف ، و يرجع تاريخها إلى القرنين السادس و الخامس ق م . وقد ذهب الباحثون في تفسير ذلك إلى أن كتبت العقود بمصر في ذلك العهد كان معظمهم من اليهود ، وكانت لغة اليهود حينئذ الآرامية . كما يرجح أن جزيرة أئس الوجود كان يقطنها في ذلك العصر جالية يهودية تتكلم الآرامية . و لا تختلف لغة هذه الآثار المصرية في شيء عن لغة بعض أجزاء سفرى عزرا ودانيال . والحروف التي رسمت بها تشبه الحروف العبرية المربعة *Hebreux carré* ، وتعد هذه الوثائق من أقدم ما وقع لنا من الآثار السامية المدونة بالمداد^١.

وقد أخذت العربية تقتحم على الآرامية معاقلاً الواحد تلو الآخر منذ القرن السابع الميلادي حتى قطعت نجحها ، ولكنها لم تنزل رغم ذلك لغة الحديث في ثلاث قرى هي : قرية "معلولة" المسيحية الواقعة على بعد خمسة وثلاثين كيلومتراً إلى الشمال من دمشق ، وقرتان مسلمتان مجاورتان لها هما "جبعدين" و "بحفا" . ويسمى العلماء لهجات هذه القرى الثلاث باسم الآرامية الحديثة الغربية *Néoramien Occidental*^٢ وتشمل اللهجات الآرامية كلاً من الآرامية القديمة والآرامية الإمبراطورية (اللغة الرسمية لأشور وفارس ، وآرامية التوراة أو الكلدية) والآرامية الغربية بفصائلها التدمرية (البالميرية) و التبتيّة والفلسطينية والجليلية ، والآرامية الشرقية التي تشمل السورية والبابلية و التلمودية والماندية .

^١ د . على عبد الواحد والى : فقه اللغة ، ص ٦٣

^٢ د . على عبد الواحد والى (السابق) ص ٧٠

أما العربية الفصحى (العربية الباقية) التي شهدت النور في جزيرة العرب ، و البقي كانت لسان قريش، فقد أخذت تَبْسُطُ نفوذها منذ القرن الخامس الميلادي ، ثم لم يلبث القرآن أن نَقَحَهَا وَخَصَّبَ دوحَتها فأينعت ثمارها ، وحل قِطافُها الفاتحون إلى مشارق الأرض ومغاربها حتى أَمَسَتْ في العصر الحاضر جارية على لسان الرُقعة الجغرافية الشاسعة الممتدة بين المحيط الهندي في الشرق والمحيط الأطلسي في الغرب ، حيث يربو الناطقون بها اليوم على المائة والخمسين مليوناً من البشر بجزيرة العرب والشمال الأفريقي والأردن وفلسطين ولبنان وسورية والعراق وبعض مناطق تركيا وإيران وبعض جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق .

أما اللغة المالطية (لغة جزيرة مالطا) فقد انسلخت عن العربية، وأصبحت لغةً مستقلة بذاتها في العصر الحاضر .

ولم يُكْتَبْ للعربية الجنوبية (السبئية والمعينية والقتبانة والحضرية) العيش على الألسنة إلا في الحِقبة المحصورة بين الألف الأولى قبل الميلاد والألف الأولى بعده . وكان للسبئية اليد العليا على شقيقاتها اليمنية ، وقد وُجِدَتْ أكثر نقوشها في مِنطَقَة العلا بشمال الحجاز ، ومنها ما وُجِدَ بالمناطق الشمالية المتاخمة لأرض كنعان . وكانت تُدَوَّنُ بالخط المُسند^١ الذي تستند أكثر حروفه إلى ما يشبه الأعمدة ، و هو خطٌ هندسي الشكل ، لطيف مُنسَق .

واليك مثالا منه مُدَوَّنًا بالأحرف العربية ثم مُترجماً إلى لغتنا المعاصرة :

" بمقم مراهيمو عشر شرقن واشمسهو والال قممو وباخيل ومقيمت خميس " .

وترجمة هذا الكلام هي :

^١ الخط المسند عُرِفَ منه الصَّغَوِيُّ والصُّودِيُّ واللحيان والسبي (الجعفري) ومن المسند تفرع الكندي والنبطي ومن الأخير الحيري والأنباري ، ومنه الحجازي (السخي العربي) . وحلقات سلسلة الخط العربي ثلاث هي الخط المصري القديم (المبروغليي والمبراطيقي والديموطيقي) و ثانيها القبطي ، وثالثها المسند .

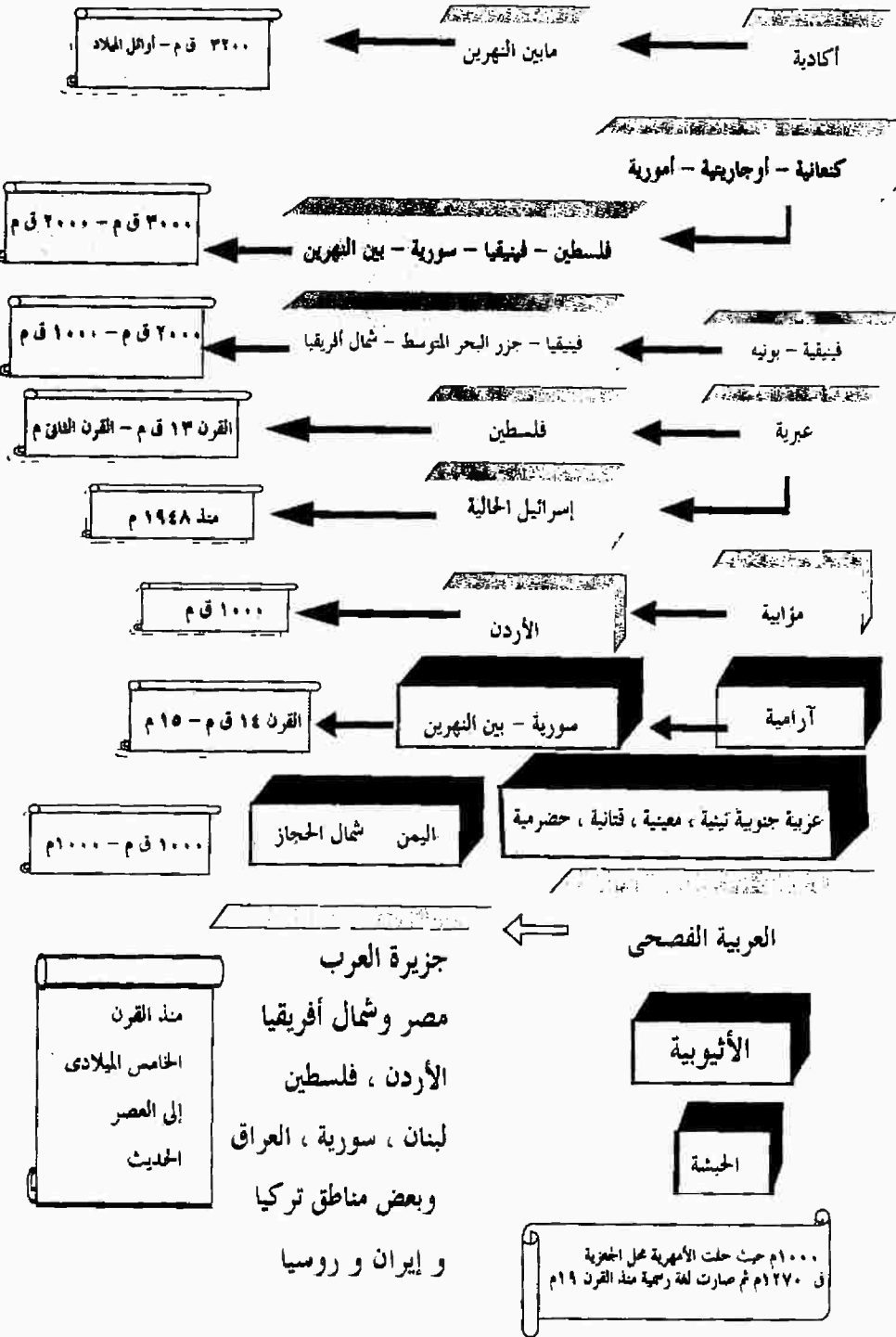
"بمجد سيدهم عشترايت المشرقة و آلهتهم الشموسِ وسائر الآلهة وبحولِ وقوةِ الخميسِ
(الجيش)" ^١ أما الإثيوبية فقد برّعت في الألفِ الأولى بعدَ الميلادِ بشمالِ الحبشة .
وأهم هجاتها الجعزية و الأمهرية والتيجرية ، والأولى هي أكثرها قِدماً ، ثم حلت محلّها
الأمهرية سنة ١٢٧٠ م التي باتت منذُ القرن التاسع عشر لغةَ الحبشة الرسمية ^٢



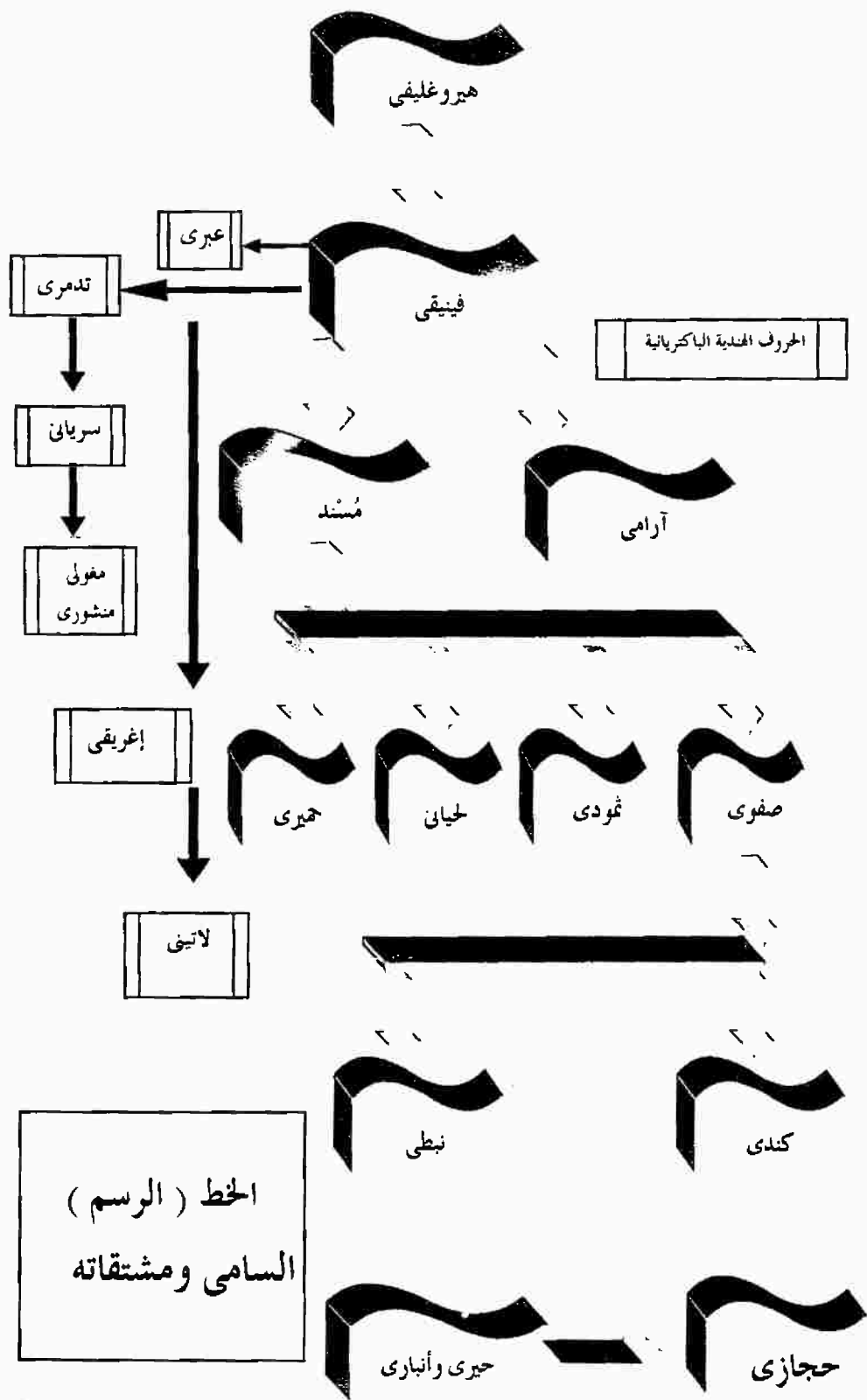
الخط المسند الحميري (المني)

^١ د. صبحي الصالح : دراسات في اللغة ، ص ٥٤ .

^٢ د. صبحي الصالح : (السابق) ص ٥٣ - ٥٤ .



موجز تاريخ اللغات السامية



الخلفية التاريخية للغات السامية^١ :

تختص الدراساتُ الخنجرية - التاريخية (التُّطُّقُ تاريخية) Glottochronological بعقد المقارنات بين اللغات ذات الأصل المشترك ، وذلك بمضاهة قوائم من المفردات الأساسية لكل لغة منها بمفردات الأخرى من شقيقتها . وقد أظهرت هذه الدراسات أن مجموعة اللغات الأكادية كانت الأولى في الانسلاخ عن اللغة السامية الأم منذ سنة ٣٣٠٠ ق م ، بينما كانت التالية لها في ذلك الانسلاخ مجموعة اللغات العربية الجنوبية (السبئية و المعينية و القتبانية و الحضرية) ، وذلك في النصف الثاني من الألف الثالثة قبل الميلاد .

وقد ظلت اللغات الشمالية الوسطى (الكنعانية والأوجاريتية والأمورية) على احتكاكٍ طويلٍ الأمدٍ بالجنوبية الوسطى (العربية الكلاسيكية الفصحى) ، حيث يُورُخُ للانقسام اللساني في المجموعة الشمالية الوسطى بدايات أو أواسط الألف الثانية قبل الميلاد .

إلا أن حَجَرَ العُثْرَةِ الذي لم يُفْلِحُ الباحثون في إماطه عن طريقِ بحِثهم المُضني هو موقع اللغة العربية تاريخياً من شقيقتها الساميات . ويُعزى ذلك إلى احتكاك العربية بلا انقطاع تاريخي ، عبر قرونٍ عدّة ، باللغة الآرامية وما إليها من المجموعات السامية البدوية .

وكانت الأكادية ، التي تحقّق الباحثون من أنها أقدم اللغات السامية انسلاخاً من رَحِمِ أمّها ، لغة آدابٍ رَفيعةٍ نَقَلَتْها إلينا في نظامٍ خَطِّي (رسم) ذي مقاطعٍ مسمارية أو إسفينية الشكلِ Cuneiform تنحدرُ من أصلٍ سومريّ . وقد وَصَلَتْ إلينا مُتَوًى مُدَوَّنةً من اللغات السامية الأخرى ذات أشكالٍ متعددةٍ في رسمها ؛ فتعرّف العلماء إلى اللغة الأمورية Amorite من أسماء الأعلام التي دُوِّنت بها ، أما الأوجاريتية Ugaritic فيتميّز رسمها بأنه شبه أبجديّ مسماريّ ، بيد أنه مُنْبَتُّ الصَّلَةِ بالمسمارية الأكادية .

^١ Encyclopaedia Britannica, 1991 , Hamito-Semitic Languages , p. 745

وكان كنعانيو فينيقيا يتكلمون في الألف الثانية قبل الميلاد لغةً مقطعيةً Syllabic لم يُوفق العلماء إلى فكِّ شِفَرَتِها بعدُ ، هي لغةُ بيبِلوس البدائية Proto Byblian ، بينما تكلم كنعانيو فلسطين وشبه جزيرة سيناء لغةً أخرى أَلِفبائية Alphabetic ما انفكت تَلاسمُها بالمثل مُستعصيةً على الحل .

أما سائرُ الشعوب السامية فقد استخدَمت في غابرِ عهدها ، وإلى العصر الحديث في معظمها على وجه العموم ، شبه أبجديات Quasialphabets ذات حروفٍ سلكنة Consonants تُعَوِّزُها الوسائلُ القاطعةُ حيناً ، أو تلجأُ إلى وسائلٍ غيرِ مكتملةِ النضج أحياناً ، لتمييز الحروف اللينة (المتحركة ، المُصَوِّتات ' Vowels) . وتحدِّرُ هذه الأبجديات (الألفبائيات) التي تُعدُّ أهمُّها العبرية والعربية من شبه الألفبائية الخطية الفينيقية ؛ Phoenician linear quasi-alphabet التي تتكوَّن من اثنتين وعشرين علامةً ، والتي اكتشِفَت للمرة الأولى في بيبِلوس ، وتمائلاً ظاهرياً التون البروتو-ببيلية Proto-Byblic أو الببيلية البدائية .

ومن الجدير بالملاحظة أن الألفبائية الأوروبية بأسرها تحدِّرُ من أصلٍ فينيقيٍّ ، وأن جميع الألفبائيات الآسيوية تحدِّرُ من صُوف الآرامية المشتقة من الفينيقية . ومن صنفٍ عربيٍّ جنوبيٍّ من صُوف الألفبائية السامية الأولى اشتَقَّت اللغة الحبشية (الإثيوبية) رسمها الكتابيُّ ذا المقاطع ، الذي لم يَزَلْ مستخدماً إلى اليوم في اللغات الإثيوبية . أما اللغة المالطية فقد انفصلت برسمها عن العربية ، واستخدَمت الأبجدية اللاتينية .

وقد حَظَّيت اثنتان من اللغات السامية المتأخرة بشرفِ التزِيلِ السماويِّ بلسانِهِما ، وهما العربية لغةُ التوراة ، و العربية لغةُ القرآن . وكان للمكانة الدينية التي تبوَّأها العربية الفضلُ في بقاء هذه اللغة في ضميرِ الشعب اليهوديِّ على الرَّغم من أنه قد استُبدِلَ بها جزئياً لغةً عاميةً آراميةً المنشأ ، جَرَّتْ على

^١ تَظَلُّقٌ عليها بعضُ المراجع العربيَّة لعلوم اللسانيات تسمية " الأصوات اللغوية الصائتة "

اللسان في الحياة اليومية بأرض فلسطين في أواخر الألف الأولى قبل الميلاد ، و بواكير الألف الأولى من بعده . فقد حفظها اليهود ، وحَرَصُوا عليها كلغة آداب ، والأدب خير حفيظ على اللغات ، فعاشت وانتعشت على ألسنتهم وفي أعلامهم حتى بعد أن أخرجهم الملوك الهلينستيون^١ Hellenistic وفي إثرهم الرومان من فلسطين فيما بين القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الثاني بعده . ثم أحيا اليهود لغتهم في صورةٍ عصريةٍ هي لغة الحديث والكتابة في إسرائيل اليوم .

أما اللغة العربية فإنها تختلف تاريخياً عن اللغة العبرية من عدة أوجه . أولها أن انتصار اللسان القرشي على سائر ألسنة العرب لم يرتبط بكتاب سماوي . فقد انعقد اللواء لعربية قريش قبل نزول القرآن بقرن ونصف القرن على أقل تقدير ، من حيث إن هذا هو العمر المقدّر لأقدم ما وقّع لنا من آداب العرب في شعرهم الجاهلي . على أن آداب العرب كانت بالقطع أوغل من ذلك في الزمن في نشرهم الخطابي ، وقصصهم ، وسجع كهانهم ، والإرهاصات الأولى لشعرهم مما لم تصنّه حافظة الرواة والناقلين . وإذا كانت قريش قد امتازت من بين العرب بلسانها ، فإنما كان ذلك راجعاً — كما قال قتادة — إلى أنها كانت تجتبي أي تتقى من بين ألسنة العرب ، على تباينها ، خير ما لطقت به حتى أمست أبلغ لغات العرب لغتها .

ووجه الخلاف الثاني بين العبرية والعربية هو أن قوم الأولى كانوا أغير على لسانهم منهم على كتابهم المقدس الذي نُزل على نبيهم بذلك اللسان ، فلم تحفظ المتون الأصلية الأولى للتوراة ، وربما تناسوها مغرضين حتى أعاد الوضّاع وضعها كل على هواه ، وفي حدود ما أتبع له من ذاكرة . ومن ثم ارتبطت المكانة الدينية للعبرية لدى اليهود بالنص المقدس ، لا من حيث هو سماوي ، وإنما من حيث هو مقدس في نظرهم ، ولو كان من

^١ يسى العصر اليوناني السابق على الإسكندر الأكبر بالعصر الملبني ، و التالي له بالعصر الهلينستي .

وَضَعِ بَشْرَهُ . وَلَيْسَتْ مَكَانَةُ الْعَرَبِيَّةِ دِينِيًّا كَذَلِكَ . لِأَمَّا ، وَإِنْ سَادَتْ لَهْجَاتُ الْعَرَبِ قَبْلَ
الذِّكْرِ الْحَكِيمِ بَزْمِنَ ، إِلَّا أَنَّ هَذِهِ السِّيَادَةَ قَدْ عَزَّزَهَا الْقُرْآنُ ، مِنْ حَيْثُ إِعْجَازُهُ وَمِنْ
حَيْثُ حِفْظُ اللَّهِ لَهُ مِنَ التَّبْدِيلِ وَالتَّحْرِيفِ وَالضَّيَاعِ .

وَلَمْ تَكُنْ آدَابُ الْعَرَبِيَّةِ لِتَجَسَّرَ عَلَى مَنَازِلَةِ آدَابِ الْعَرَبِيَّةِ فِي سَاحَةِ التَّرَالِ فِي أَيِّ عَصْرِ
مِنْ عَصُورِهَا . فَشِتَانِ بَيْنَ لُغَةٍ مُجْتَبَاةٍ مِنْ بَيْنِ لُغَاتِ عِدَّةٍ بِدَوَائِعِ فَنِيَّةٍ خَالِصَةٍ كَالْجَمَالِ
الصَّوْتِيِّ ، وَالْبَيَانِ الْمُعْجِزِ وَبَيْنَ لُغَةٍ لَمْ يَكُنْ وَرَاءَهَا دَافِعٌ يَصُونُهَا عَلَى الْأَلْسِنَةِ إِلَّا التَّعَصُّبُ
وَالْحَمِيَّةُ . فَإِنَّ الدَّفَاعَ الْحَقِيقِيَّ لِلْحَرَصِ عَلَى اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ مِنَ الْحَيْنِ وَالزَّوَالِ كَانَ دَافِعًا
قَوْمِيًّا عَنَصْرِيًّا خَالِصًا فِي جَوْهَرِهِ ، اقْتِضَاهُ الْأَضْطِهَادُ الَّذِي عَصَفَ بِالْيَهُودِ فِي مُخْتَلِفِ
حِقَبِهِمُ التَّارِيخِيَّةِ . أَمَّا الْعَرَبُ فَلَمْ تَشُبْ لِفَتْنِهِمْ شَائِبَةٌ عَنَصْرِيَّةٌ فِي أَيِّ مِنْ أَطْوَارِهَا التَّارِيخِيَّةِ ،
وَأَيَّةُ ذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ أَطْرَحَتْ مِنْ لِسَانِهَا كُلَّ مَمْجُوجٍ وَغَرِيبٍ بِسَمَاحَةِ نَفْسٍ ، عَلَى مَا
كَانَتْ الْعَرَبُ عَلَيْهِ مِنْ عَصَبِيَّةٍ قَبَلِيَّةٍ لَا يَنْكُرُهَا مُنْكَرٌ ؛ فَقَدْ كَانَ الْأَجْدَرُ بِهَا مُنْطَقِيًّا أَنْ
تَنْشَعِبَ إِلَى فَرْقٍ مُتَاحِرَةٍ كُلٌّ يَنَافُحُ عَنْ لَهْجَةِ قَوْمِهِ ، وَ لَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَحْدُثْ لِسَبَبٍ وَاحِدٍ ،
أَلَا وَهُوَ الْحِسُّ اللَّغَوِيُّ الدَّقِيقُ الَّذِي اِمْتَاَزَتْ بِهِ الْعَرَبُ وَالَّذِي كَانَ كَفِيلًا بِأَنْ يَصْدَعَ لِسَانُ
كُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ بِأَمْرِ الْجَمَالِ اللَّسَانِيِّ الَّذِي يُمَيِّزُ فَرِيقًا غَيْرَهُ ، فَعَمِلَتْ الْعَرَبُ بِمَبْدَأٍ : مِنْ
أَوْتَى خَيْرًا مَنِي فِي شَيْءٍ فَلْأَشَارِكُهُ فِيهِ ، فَمَا بِالْكَ لَوْ كَانَ هَذَا الشَّيْءُ لُغَةً أَى مِلْكًا عَلَى
الْمَشَاعِ ، لَا يَتَقَدُّ ، شَاسِعَ الْأَطْرَافِ يَغْتَرَفُ مِنْهُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ؟ وَ قَدْ كَانَ
الْجَاهِلِيُّونَ ، عَلَى اخْتِلَافِ لَهْجَاتِهِمُ الْقَبَلِيَّةِ ، يَقْرِضُونَ الشَّعْرَ وَيَتَبَارَوْنَ فِي إِنْشَادِهِ بِلُغَةٍ
فَصِيحَةٍ مُوَحَّدَةٍ كَمَا يَفْعَلُ شُعَرَاءُ الْعَرَبِيَّةِ الْمُعَاصِرُونَ عَلَى اخْتِلَافِ بِلْدَانِ الْعَرَبِ .

ثُمَّ إِنَّ الْعَرَبَ لَمْ تَعْرِفْ الْأَضْطِهَادَ الَّذِي عَرَفَتْهُ الْيَهُودُ ، وَلَمْ تَتَعَرَّضْ لِمُحَاوَلَاتِ غَزْوٍ
فِكْرِيٍّ وَ لُغَوِيٍّ مِنْ قَبْلِ الْفُرسِ وَالرُّومِ ، وَلَا لِنَفْيِ فِي الْأَرْضِ وَلَا شَتَاتِ Diaspora بِمِثْلِ مَا
حَاقَ بِالْيَهُودِ . وَإِنَّمَا احْتَصَنَتْ الْعَرَبُ بِمَعْقِلِهَا الصَّحْرَاوِيَّ الْمُنْعِي جُغْرَافِيًّا مِمَّا أَتَاكَ لِلْعَرَبِيَّةِ

أن تولّد في مهد الذوق اللّغويّ الخالص ، المجرّد من صبغة العنصرية .
ولم يكن نزول القرآن مجرّد عضدٍ للسان العرب وصوّناً له من الضياع ، وإنما كان
طَفرةً بيانيةً اختصرت من زمن غوّه دهرًا ، وقفزت به من نزق الطفولة ، على فصاحتها ،
إلى حُنكة الرجولة وحصافتها ؛ ومن خشونة البداوة وفظاظتها إلى رقة الحضارة وسماحتها ؛
فصار العربيّ المسلم أغيرَ على لسانه منه في جاهليّته الأولى ، لأنه وقد انضاف إلى دقّة
حسّه اللغويّ رقة شعوره الدينيّ ، أصبح أكثر انتصاراً للغته و للدّرع الحكمة التريل التي
ذادت عنها ، وغلبتها على لغات أقطارٍ سطّع نور القرآن في سمائها .

والوجه الثالث للاختلاف بين العربية والعبرية هو أن العربية لم تتدبّر في أيّ عصرٍ من
عصورها ، بل إنّها ، تحت راية القرآن ، أخذت الغزاة العثمانيين على الرّغام إلى ساحاتها
كلغة دينية رثّلوا بها أيّ الذّكر الحكيم ، وإن لم تكن لغة رسمية لهم .
ولو كان العثمانيون أهل علم وفنون وآداب ذات خطرٍ في معيار التاريخ لاتخذوا العربية
لغة لإبداعهم الفكريّ كما فعلت العجم بعد أن فتحها الله على المسلمين .
فلقد جاورت العربية الفارسية بعد الفتح دون أن تقضى عليها ، لأن الفرس كانوا ذوى
شأن ودورٍ حضاريّ في الآداب والعلوم بلغتهم قبل الإسلام ، فلم يجدوا غضاضةً في
الحفاظ على عطائهم الحضاريّ المتجدّد بلغة الفاتحين بعد الإسلام . ومن ثمّ لم تحتجّ العربية
إلى الإحياء المُفتعل في يومٍ من الأيام كما احتاجت العربية . وقد أتاح الله للغة قرآنه بسطةً
في الأرض والقلوب معاً فلم تنعزل في ضاحيةٍ منبوذة Ghetto بمثل ما انعزلت العربية في
الجيتو الصهيونيّ المعاصر المعروف بدولة إسرائيل أو الدولة العبريّة . وآية التعصّب
العنصريّ الذي كان وليد الشعور بالاضطهاد في أعقاب الحرب العالميّة الثانية أن اليهود
أحيوا لغتهم من موات ، وأن كلّ دارسٍ مُعاصرٍ للعبريّة المعاصرة يكتشف أنّها لم تنزل بعدُ
في طور التكوين ، فمن غير المعقول أن تجاري لغةً بائدةً مُقتضيات العصر بمجسّدٍ بعثها
كما كانت في صورتها الأولى .

موقع اللغة العربية من التطور اللغوي :

(أولاً) : موقع العربية من التطور اللغوي العام عند "شليجل" :

هناك ثلاثة اتجاهات أساسية لتصنيف اللغات اتفق عليها علماء اللسانيات^١ : التصنيف التَّسَيُّ (الجِنْسِيُّ) Genetic classification الذي يقوم على صلات القرابة والنسب بين أفراد فصيلة لغوية ذات أصل مشترك يتمثل في اللغة الأم لأفراد الفصيلة ؛ والتصنيف النمطي Typological classification الذي يستند إلى أبنية ألفاظ اللغة وتراكيبها وطبيعة علاقاتها بعضها ببعض ؛ والتصنيف الجغرافي Geographical classification الذي يلجأ إليه إذا ما أعيت العلماء السبل إلى الإحاطة الكافية برابطة التسبب بين مجموعة من اللغات أو بنظام ثابت لبنية ألفاظها .

وقد تناولنا في أقسام سبقت التصنيف التَّسَيُّ للغات السامية ، والروافد التي تربط كلاً منها بلغتها الأم . أما من حيث التصنيف النمطي ، فإن أبرز مميّزاته هو أنه يضرب الصّقّج عن علاقات التسبب بين اللغات ، ويستند أساساً إلى بنية اللفظ و تصريفه وحركاته الإعرابية وعلاقاته المنطقية بالألفاظ المصاحبة له في العبارة الواحدة . وأشهر النظريات بهذا الصدد نظرية العالم الألماني "شليجل" Schlegel التي تابعتها فيها جبهة كبيرة من علماء اللغة^٢ .

يُصنّف "شليجل" اللغات الإنسانية إلى ثلاث طوائف تُعتبَر لمن يتأملها ثلاث درجات من الترقّي اللساني للإنسان . فالطائفة الأولى هي مجموعة اللغات العازلة Isolating Languages ، والثانية هي اللغات اللصقيّة Agglutinative^٣ ، والثالثة اللغات المتصرفّة Inflecting أو التحليليّة Analytical كما يروق للبعض إسباغ هذا الوصف عليها . ومن الجدير بالملاحظة أن هذا التصنيف لا يقصد به التطور اللغوي داخل مجموعة لغوية ذات أصل

^١ Dictionary of Modern Linguistics, Librairie du Liban Publishers, First impression, 1997, pp. 18 – 20.

^٢ د. علي عبد الواحد وال : علم اللغة ، مكتبة هضة مصر ، الطبعة العاشرة ص ١١٥ - ١١٨

^٣ يفضل بعض العلماء تسمية Agglomerative لهذه الطائفة.

مشارك لأنه قد سبقَت الإشارةُ إلى أن هذا إن هو إلا منهجٌ وصفيٌّ محضٌ للخصائصِ اللغويةِ لمختلفِ الألسنةِ البشريةِ تأسيساً على أبنيةِ الألفاظِ وتراكيبِها والصلاتِ القائمةِ بينها في نسيجِ البنيةِ العباريةِ Syntax .

والسمةُ المميزةُ للغاتِ العازلةِ هي أن ما يحددُ دلالاتِ الكلماتِ هو الترتيبُ الذي تردُّ عليه في السياقِ ، فالكلماتُ في هذه اللغاتِ غيرُ مُتصرفَةٍ أي أنها ثابتةٌ مورفولوجياً ، غيرُ متغيرةِ البنيةِ سواءً بمحركاتٍ إعرابيةٍ أو بإضافةِ (لصقِ) حروفٍ بالأصلِ اللفظي . كما لا توجدُ روابطٌ بينَ الكلماتِ تحدُّ وظائفها المنطقية ، وإنما تحدُّ الدلالاتُ من مجردِ التجاورِ Paratax و التنسيقِ الذي تتخذُه الألفاظُ داخلَ البنيةِ العباريةِ .

ومن ثم تسميتها بالعازلة ، فالعبارةُ منها تتركَّبُ من وحداتٍ أو أجزاءٍ لفظيةٍ مُستقلةٍ بذاتها لا تُستفادُ وظائفها إلا من الترتيبِ الذي جاءت عليه .

و تعتبر اللغةُ الصينيةُ خيرَ مُمثلٍ لهذه الطائفةِ اللغويةِ التي يحلو للبعضِ تسميتها باللغاتِ الأحاديةِ المقاطعِ Monosyllabic .

والطائفةُ الثانيةُ داخلَ التصنيفِ النمطيِّ للغاتِ تنظمُ المجموعةَ اللَّصقيَّةَ Agglutinative التي تحدُّدُ فيها دلالةُ اللَّفْظِ بواسطةَ لَصَقِ (إضافة) لَوَاصِقِ Affixes سابقةٍ على الأصلِ اللفظيِّ Prefixes أو لَوَاحِقِ Suffixes تاليةٍ له .

وقد تلعبُ هذه اللواصِقُ دوراً في تحديدِ علاقاتِ الكلماتِ بأجزاءِ العبارةِ . ومن هذا الضَّرْبِ من اللغاتِ الأوروبيةِ : المجريةُ و الفنلندية ؛ ومن الآسيويةِ : التركيةُ واليابانية ؛ ومن الأفريقيةِ : السواحليةُ .

و لنضربُ مثلاً هذه الطائفةَ من اللُّغةِ التركيةِ : تعني كلمةُ "ev" في التركيَّةِ "المسَرَل" في صيغتهِ المُفردةِ ، تصيرُ في صيغةِ الجمعِ إلى "evler" . ويوردُ الشكلُ التالي الكلمةَ في حالةِ الجرِّ بواسطةِ "ي" و "إلي" ، فحالةُ المِلِكِ بواسطةِ ضميرٍ مُتَّصِلٍ ، فحالةِ الجرِّ مع المِلِكِ ؛ مع ما يطرأ على الأصلِ اللَّفْظيِّ من لَصَقِ لِلَوَاحِقِ suffixes في كلِّ حالةٍ منها .

المفرد

الجمع

متزل

ev

ev ler

المفرد	ev <u>i</u> de	ev <u>le</u> <u>re</u>	الجمع
المجرور	ev <u>ie</u>	ev <u>ler</u> <u>de</u>	المجرور

ev i

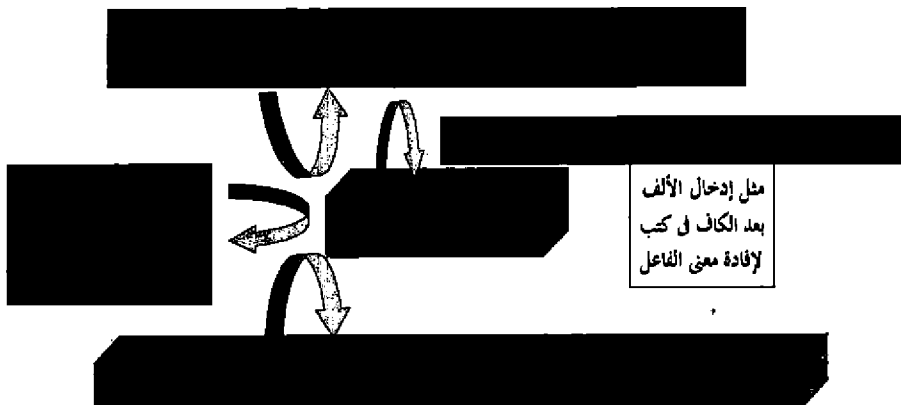
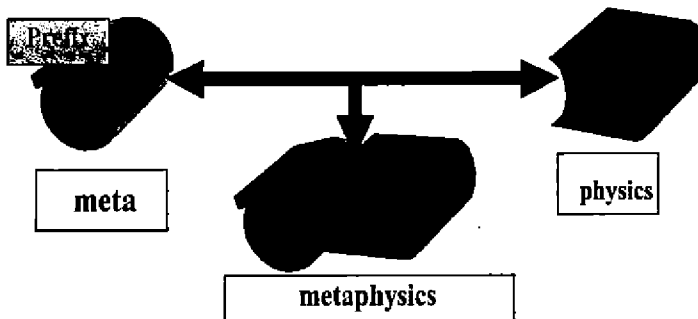
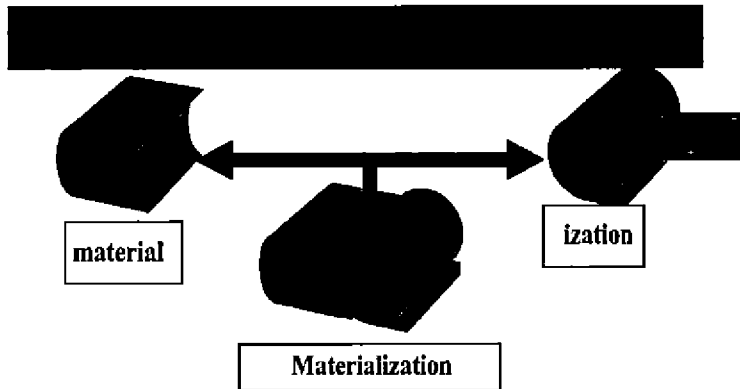
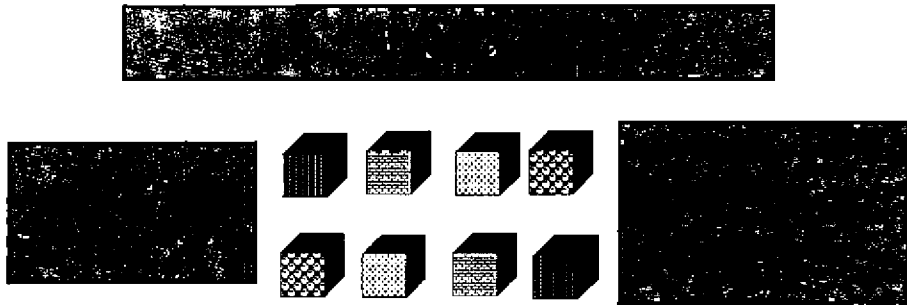
ev lerie

والطائفة الثالثة داخل التصنيف النمطي للغات هي طائفة اللغات المتصرفية Inflecting أو التحليلية Analytical أو التركيبية Synthetic . وفي هذا الصنف من اللغات تحدّد دلالة الكلمة بتغير بنيتها بإضافة الوحدات الصرفية Morphemes التي تعبّر عن وظائف الكلمات بالعبارة . والمورفيم أو الوحدة الصرفية هو أصغر وحدة لغوية لها معنى أو وظيفة دلالية تؤديها في لغة من اللغات . وهي تأتي على شأكلتين : حرة Free أو مقيدة Bound ، ومثال ذلك كلمة "مدرسون" ، حيث يُعبّر لفظ "مدرس" مورفيماً حراً لأنه يستطيع أن يقوم بذاته مُعبّراً عن معنى معين ، وهو في آن واحد أصغر مورفيم لأنه لا بديل أصغر منه يفيد معناه . أما المورفيم "ون" فلا يمكن أن يأتي مستقلاً بذاته ليؤدّي المعنى ، و من ثم فهو مورفيم مُقَيّد لا بدّ له من أن يلحق بالاسم ليُفِيد معنى المذكر السالم من جهة ، و ليؤدّي وظيفة الرفع من جهة أخرى . ولا يوجد في اللغة ما هو أصغر منه ليلعب هذين الدورين المتخصّصين . و تبلغ دقّة الوحدات الصرفية أو المورفيمات أعلى مراتبها في الصبغ الفعلية ، فقولك : "يكتب" - على سبيل المثال - يفيد عدّة معانٍ هي أن الفاعل الضمير الثالث "هو" ، وأن العدد مُفرد ، وأن الجنس مذكّر ، و أن الزمّن مضارع .

وإذا أخذنا كلمة "علم" فإنّ تغيير أبنيتها يحمل معناها على أوجه متعددة .

فقولك "علم" للدلالة على المصدر ، و"علم" للدلالة على الفعل الماضي وفاعله و جنسه وعدده ، و"علم" للدلالة على تعدّي الفعل ، و"اعلم" للدلالة على الأمر ، و"علوم" للدلالة على الجمع ، و"معلوم" للدلالة على الذي عُلِمَ . أما من جهة السياق والتنظيم فإن عناصر الجملة يتّصل بعضها ببعض عن طريق روابط تُعيّن العلاقات فيما بينها . فتقول مثلاً : ذهبَ محمدٌ و عليٌّ من المنزل إلى الجامعة ؛ فالتوين بعد الدال في "محمد" (أى الإتيان بواو قصيرة ونون زائدتين) يفيد أن محمداً قد أحدثَ الحدث ، والواو العاطفة عليّاً على محمد تربط بين شخصين في أداء الفعل ، و"من" دلالة على نقطة الابتداء في الفعل ، و"إلى" دلالة على نقطة الانتهاء منه .

^١ د. علي عبد الواحد والي : علم اللغة (السابق) ص ١١٥ .



ومن الجلي أن العربية من خير أمثلة اللغات المتصرفّة ، و يصدّق ذلك أيضاً على اللغات الساميّة على وجه العموم ، و على اللغات الهندو-أوروبية وبخاصّة اللاتينية والفرنسيّة والإيطاليّة .

ويرى أنصار نظرية التصنيف النمطيّ للغات أن اللغات الإنسانيّة نشأت في مبدئها عازلة ، ثم ارتقت إلى لغات لاصقة ، حتى بلغت الدرّج الأعلى في الارتقاء عند طبقة اللغات المتصرفّة . إلا أنه مما لا شكّ فيه أن هذا التصنيف لا يسعّه أن يستفيد عالم المقال - على حدّ قول الناطقة - وهو ليس بالقول الفصل في التمييز بين الأنماط اللغويّة ، لأن الحدود الصارمة التي يخطّها بين الصنوف اللغويّة لا تضمّد أمام التداخل بين سمات صنف منها وسمات صنف مخالف له حين يجتمعان بداخل اللغة الواحدة بعينها ، أو بمعنى آخر فإننا نلمس في الكثير من اللغات المتصرفّة و لاسيّما المجموعة الهندو-أوروبية جمعاً بين القابليّة للتصرف و اللصق معاً . وهذا لا يعنى بآية حال أنّها من الأنماط اللغويّة التي لم تشب عن الطوق في أطوار النمو اللغوي ، لأن القابليّة للّصق في نسيج لغة متصرفّة هو ممّد يُحسب لها لا عليها ، بل نكاد نقول إن افتقار لغة متصرفّة إلى هذه القابليّة هو من المآخذ عليها ومن المثالب التي تُجدّد من مروّتها وطواعيتها للتوسيع والتطوير ، وبخاصّة في لغة العلوم الطبيعيّة والإنسانيّة التي لا تمّل ولا تكمل عن النحت اللغوي المطرد لابتكار الجديد من مصطلح .

وغنى عن البيان أن النحت يستلزم اللصق لأنه يقوم على انتزاع أصوات كلمة واحدة من كلمتين فأكثر أو من جملة للدلالة على معنى مركّب من معاني الأصول التي انتزعت منها كقولك مثلاً "بسمّل" أى "قال: بسم الله الرحمن الرحيم" ، أو "حوّقل" أى "قال: لا حول ولا قوة إلا بالله" ، وما إلى ذلك . على أنه من الملاحظ أن هذا الأسلوب في التوليد اللفظي بالغ التدرّة في اللغات الساميّة ومنها العربيّة بالطبع ، بينما يشيع

^١ د. علي عبد الواحد وإي : فقه اللغة (السابق) ص ١٨٦ .

اللجوءُ إليه بتوسُّعٍ في اللغاتِ الهندو-أوروبية ، مما كان له أبلغُ الأثرِ في اصطناعِ علومِ الغربِ لأدقِّ المصطلحاتِ وأَحَدَها مَضَاءٌ في التعبيرِ القاطعِ عن المفاهيمِ العلميةِ بإيجازٍ بليغٍ و حُسْنِ إصابةٍ للمعنى المستفاد . و سوف نناقشُ هذا الأمرَ باستفاضةٍ بإذنِ الله في القسمِ الثاني من هذا العملِ في فصلٍ مُفَرَّدٍ له .

(ثانياً) : موقع العربية من التطوُّر اللغوي في شجرة اللغات السامية :

يَتَّفِقُ اللُّغَوِيُّونَ المعاصرونَ على تسميةِ اللغةِ الأمِّ في شجرةِ اللغاتِ الساميةِ باللغةِ البروتوساميةِ Proto-Semitic أى النمطِ البدئى أو الأصلى من اللغةِ الأولى التى أُنجِبتِ مجموعةُ اللغاتِ الساميةِ ، الباقي منها والبائد .
وقد تمكَّنَ العلماءُ بعدَ جَهْدٍ جَهِيدٍ من إنجَازِ ما يُعرَفُ في علومِ اللغةِ بإعادةِ البناءِ اللغويِّ Reconstruction للغةِ الساميةِ الأصليةِ للوقوفِ على معالِمِها الصوتيةِ (الفونولوجيا Phonology) و الشكليةِ (المورفولوجيا Morphology) و البنيويةِ (السيتاكس Syntax) أى المتعلقةِ بطبيعةِ البنيةِ العباريةِ فيها .

وكما هو متوقَّعٌ بالضرورةِ فإنَّ اللغاتِ الساميةَ الباقيةَ إلى اليومِ ليستَ جميعها على قَدَمِ المساواةِ في الاحتفاظِ بالخصائصِ الأساسيةِ للغةِ الأصلِ التى انحدَرَتِ منها . و يتفقُ البَحَاثُ على أن اللغةَ العربيةَ تفرَّدُ من بينِ شقيقاتِها السامياتِ بأنها كانتِ أبْرَهَنَ بأمِّها الهرمةِ ، وأكثرَهَنَ تشبُّهاً بها ، وأحرَصَهَنَ على السماتِ اللغويةِ التى أُورِثَها من تلكِ الأمِّ . وبلغتْ شدةَ اقترابِ العربيةِ من الساميةِ الأمِّ حدًّا دَفَعَ العلماءَ إلى وصفِ العربيةِ بأنها "أشدُّ اللغاتِ ساميةً" .

وسنوجزُ فيما يلي الخصائصَ الصوتيةَ والشكليةَ والبنائيةَ للغةِ البروتوساميةِ أو الساميةِ الأصليةِ . ومن خلال تحديد هذه الملامحِ للغةِ بائدةٍ في عُرفِ التاريخِ سنَعقِدُ مقارنةً بينها وبينَ ما حِفِظَتْهُ العربيةُ المعاصرةُ من هذه الملامحِ لكي نُقوِّمَ حُكْمَ التاريخِ على السلفيةِ الأمِّ ونعرفَ إن كانت قد قُصَّتْ نَجْهًا إلى غيرِ رَجْعَةٍ ، أم أنها سَلَمَتْ الأمانةَ إلى خيرِ وريثاتها .

صوتيات (فونولوجيا) اللغةِ البروتوساميةِ :

ثمةُ خمسِ خصائصٍ فونولوجيةٍ تميِّزُ اللغةَ الساميةَ الأمِّ ، وهي :

(١) وجودُ نظامٍ سداسيِّ المِصَوِّتاتِ Six vowel system ينتظمُ ثلاثَ حركاتٍ (أصواتٍ لينةٍ) ممدوداتٍ ، و ثلاثاً مقصَّباتٍ (قصيراتٍ) يمكنُ تمثيلُ أصواتها بالأحرفِ العربيةِ كما يلي :

آ ، إي ، أو ، أ ، إ ، أُ .

(٢) احتواؤها على حروفٍ ساكنةٍ Consonants من النوعِ الحَلْقِيِّ الاحتكاكيِّ Pharyngeal fricative مثل "الحاء" التي تُعَدُّ صوتاً حَلْقِيّاً احتكاكياً مهموساً Voiceless ، و "العين" وهي من الأصواتِ المجهورةِ Voiced .

(٣) استخدامها الصوتِ الحَنَجَرِيِّ الانغلاقيِّ Glottal stop كوَحدةٍ صوتيةٍ Phoneme ' ' .

(٤) استخدامها أنصافِ المِصَوِّتاتِ Semivowels (الواو والياء) كحروفٍ ساكنةٍ Consonants .

(٥) وجودُ ثلاثةِ صَنُوفٍ من السَّوَائِنِ المجهورةِ Voiced Consonants وهي في العربيةِ تسعةٌ عشرَ حرفاً : أ ب ج د ذ ر ز ض ط ظ ع غ ق ل م ن و ي ا ، والمهموسةِ Voiceless وهي عشرةٌ أحرفٍ : ت ث ح خ س ش ص ف ك الهاء ، والمشدَّدةُ Emphatic وهي ثمانيةٌ أحرفٍ : أ ب ت ج د ط ق ك .

و يسترعى الانتباه أن اللغة العربية المعاصرة تستوفي هذه الخصائص الخمس بخلافها .

^١ Kaye, Alan S : The World's Major Languages, Comrie B , New York : Oxford University Press , 1987, pp. 664- 685

^٢ "الصوت الحادث من انفلاق لسان اللزمار أى الفراغ بين (الوترين) الصوتيين مما يؤدي الى حبس التيار الهوائي ثم انفراج الوترين فحاة فيطلق الهواء

المحبوس كما في هزة القطع أ

^٣ "الفونيم أصغر وحدة صوتية قادرة على تمييز كلمتين مختلفتين كالفريق بين كلمتي "حرير" و "خبرير" المختلفتين في الحرف الأول فقط و للتساويتين في باقي الأصوات .

^٤ Kaye : op. cit.

شكليات (مورفولوجيا) اللغة البروتوسامية :

احتفظت العربية بالكثير من السمات المورفولوجية الأساسية للغة السامية الأم ، وهى سبع على الأقل ، وتشمل :

(١) تركب الكلمات من جذرٍ مُكوّن من أحرفٍ ساكنةٍ يبنى عليه نظامٌ صوتيٌّ بإضافةِ الأحرفِ اللينةِ (المصوّتات) ، فالجذرُ " كَتَبَ " مثلاً يتكرّرُ في الكلمتين " مكتبة " و " كِتاب " إلا أن المصوّتاتِ و السواكنِ الإضافيةَ تُبدّلُ مواقعها منه ، ويلتصقُ بعضها كدواخلِ infixes في وسطِ الجذرِ (كالألف بعد الكاف في كاتب) لإفادةِ المعنى المقصودِ إليه .

(٢) احتواءُ الجذورِ في غالبِ الأحيانِ على ثلاثةِ أحرفٍ ساكنةٍ ، وتُدْرَجُ الجذورُ الثنائيةُ السواكنِ .

(٣) كثرةُ اللجوءِ إلى الإدخالِ Infixation في وسطِ الجذرِ اللفظيِّ (كما تقدّم) ، وقِلّةُ اللجوءِ إلى إلصاقِ السوابقِ Prefixes و اللواحقِ Suffixes في معرضِ إحداثِ تغييراتٍ مقوليةٍ Category changes وتوليدِ الألفاظِ المتعلقةِ بها .

(٤) تعيينُ النظامِ الصرقيِّ Declension system لثلاثةِ أحوالٍ إسميةٍ على أقلِّ تقديرٍ ، وهى حالةُ الرفعِ (صيغةُ الفاعلِ Nominative) ، والتصبُّ (صيغةُ المفعولِ Accusative) ، والجرِّ (صيغةُ الإضافةِ Genitive) .

(٥) وجودُ ثلاثِ صيغٍ للعددِ هى المفردُ و الثنّى و الجمعُ ، ومُطابَقَةُ الأسماءِ والأفعالِ و الثعوتِ (الصفاتِ) لكلِّ صيغةٍ منها وَفْقَ الاقتضاءِ ؛ وتُعَدُّ هذه السمةُ مما تفرّدُ به اللغاتُ الساميةُ بينَ لغاتِ البشرِ ، ولا يخفى ما يُسبِغُه ذلكَ عليها من دقّةٍ في الأداءِ وإصابةِ المعنى .

(٦) الوضوحُ في التمييزِ بينَ الجنسِ المذكّرِ والجنسِ المؤنثِ في الأسماءِ والثعوتِ والأفعالِ .

(٧) مخالفةُ العددِ للجنسِ بينَ الثلاثةِ والعشرةِ .

بنائيات اللغة البروتوسامية^١ :

لم يُكَلَّل مسعى علماء اللسانيات بالاهتداء إلى تصوّر مكتمل الأركان لطبيعة البنية العباريّة Syntax للغة الساميّة الأمّ يضاهاى التوفيق الذي واتاهم في التعرف على صوتياتها وشكلياتها . ومن المظنون أن أسماء الإشارة في الساميّة - بخلاف العربية - كانت تتبعُ الأسماء في الترتيب . و المتفق عليه جُمْلَةً هو أن التشابه بين عربيّتنا وبين الساميّة أبعدُ من كلّ تصوّر ، وهذا لا ينفي بالطبع أنه قد طرأ على العربية نزراً يسيراً من التغيّرات مُقارَنةً باللغة الأمّ .

(ثالثاً) تطوّر العربيّة داخل نطاقها اللغويّ من البائدة إلى الباقية :

يكتنف مولد اللغة الفصحى عند العرب الكثير من الغموض ، ويبدو أن القول المأثور بأنها لسان قُرَيْشٍ في الأصل ليس بالقول الفصل ولا نهاية المطاف على طريق البحث والتمحيص . فنرى البعض من كبار المستشرقين الذين عَشِقُوا العربية ، ووقفوا حياتهم على التخلُّل في أدقّ دقائقها يشكُّ كلَّ الشكِّ في استنثار قريش بالفضل في اجتباء خير ما جرى على اللسان العربيّ استكمالاً لأدوات فصاحته . ويتبع هؤلاء المستشرقين في الرأي بعض كبار الباحثين العرب .

فيري " نولدكه " Noeldeke الألماني أن الفروق بين اللهجات في جزيرة العرب لم تكن كبيرة ، وأن اللغة الفصحى مبنية على هذه اللهجات جميعاً^٢ . ويتفق معه "جويدي" الإيطاليّ إذ يرى أن العربية الفصحى لم تكن لهجة قوم بعينهم ولا قبيلة بعينها ، وإنما هي مزيج من لهجات نجد وما جاورها . ويقول "بروكلمان" Brockelman : ولا شك أن لغة الشعر

^١ Hetzron , Robert : Semitic Languages : The World's Major Languages , op. cit. Pp. 654 - 663

^٢ حجر الدين الزركلي : الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ج ٢ ص ٩٦ .

^٣ كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، دار المعارف ، مصر ، ترجمة د. عبد الحليم النجار ، الطبعة الخامسة ، ج ١ : ص ٤٢ .

القديم هذه لا يمكن أن يكون الرواة والأدباء اخترعوها على أساس كثرة من اللهجات الدارجة . ولكن هذه اللغة لم تكن لغةً جاريةً في الاستعمال العام، بل كانت لغةً فنيةً قائمةً فوق اللهجات ، وإن غدتها جميع اللهجات . وقد استوعبت لغة الشعر هذه كل خصائص الأصل اللغوي السامي أكمل استيعاب ، وإن لم تحتفظ في جميع نواحيها بأقدم الصيغ والقوالب ، ولم تضارعها لغة من نسبها السامي في مرونتها ودقتها في التعبير عن العلاقات التركيبية . وهي مع واقعيتها الثابتة في وصف الأشياء تتأجج بروحانية تمكنها من التعبير عن أرق أحاسيس الحب ، وكذلك عن أقوى خواج الشعور بكرامة الرجولة " .

أما " كارلو نلينو " الإيطالي فيقول^١ : " ما هي اللغة المصوغة فيها الأشعار القديمة المشهورة و المُرَلُّ بها القرآن ؟ أقول لا شك في أنها لغة الشعر الجاهلي المنقول في كتب السلف فباللغة الأدبية نزل القرآن ، وإذا أمعنا النظر في دلائل القائلين بأن العريضة المبينة لغة قريش وعرضناها لمحك المنتقد ، وجدنا فيها ضعفاً ظاهراً ، فافهم استدلاً بوفود الشعراء والخطباء من كل فجّ إلى سوق عُكاظ ، وما انتبهوا إلى ما هو مشهور ومجمع عليه من أن عُكاظ إنما اتُخذت سوقاً في عهد قريب من الإسلام ، وكان امرؤ القيس قد ظفر من مدة بقصب السبق في ميدان الشعر بالعربية القصوى ، واستدلوا بانتقاء قريش ما حلا في الذوق وخف على السمع من لغات العرب الوافدين إلى مكة أو عُكاظ ، وفاهم أن مثل هذا التهذيب الصناعي من طرف قوم ولاسيما من قوم قلت الآداب فيهم ، هو من الأمور المخالفة لنواميس تكون اللغات ولُموها ، واستدلوا بأن قريشاً كانت ألسن العرب ، وما رأوا أنه قول لا أصل تاريخي له ، وتناقضت روايات أخرى متعددة منقولة في كتب اللغة والحديث . فإذا كانت قريش أفصح العرب ، فلماذا إنما نقلت اللغة عن غيرها؟ فبدل أن يستشهد الثحاة واللغويون بقريش اقتبسوا العلم من أشعار الجاهلية أو عريان البادية . لماذا لم يسأل المفسرون أهل مكة عن غريب القرآن لو كان التزيل بلغة

^١ نلينو ، كارل ألفونس : كيف نشأت اللغة العربية ٩، مجلة الهلال السنة ٢٦ ، عدد أكتوبر ١٩١٧ ، ص ٤١ - ٤٨ .

قريش ، وإنما استفادوا من قديم الشعر غير القرشي كما يتضح من كُتب اللغة وتفسير الطبري وما جاء معزّواً إلى ابن عباس في النوع السادس والثلاثين من كتاب الإتقان في علوم القرآن للسيوطي؟ ثم أليس من المستبعد بل من المحال ارتقاء العربية إلى أوج كمالها في قبيلة كاد لا ينبغ فيها شاعر مشهور ، ولا خطيب مذكور ، دون القبائل المتفقي على فوزها بالقدح الملقى من البلاغة والشعر؟

فلا شك للمتروى في هذه المسألة تروياً منصفاً خالياً عن الأغراض ، أن الناس ما ذهبوا إلى القول بفضل لغة قريش على غيرها من لغات العرب إلا حباً وإكراماً لقبيلة النبي ، وأنهم أنفسهم لم يعملوا به في مباحثهم اللغوية .

ومن بين الباحثين العرب يتفق الأستاذ أمين الخولي والدكتور عبده الراجحي والدكتور عبد النعم الزبيدي مع كارلو نلليو فيما ذهب إليه . ويرى البعض من أنصار هذا المذهب أن الاحتجاج بالسنة النبوية الذي يلجأ إليه مخالفوهم في الرأي لإثبات الفضل لقريش في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : " أنا أفصح العرب بيده أنى من قريش " فيه عسف في التأويل ، لأنهم ذهبوا إلى أن " بيده " تعني " من أجل " و " بيده " اسم ملازم للإضافة إلى أن ومعوليتها ، ومعناه " غير " أى " إلا أن " ، ولا يقع صفة ولا استثناء متصلاً ، وإنما يستثنى به استثناء منقطعاً ، نحو " فلان كثير المال ، بيد أنه بخيل " . ومما يذخض هذا التأويل بأخذ كلمة " بيد " مأخذ التعليل بدلاً من الاستثناء ، وشأن ما بينهما ، قول عمر رضى الله عنه : " يا رسول الله ، ما لك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا ؟ " فيجيبه رسول الله : " كانت لغة إسماعيل قد درست فجاء بها جبريل عليه السلام فحفظناها فحفظتها " .

^١ محمد يوسف الجطلوى : الشعر الجاهلي وأثره في تفسير معاني القرآن الكريم ، منشورات جامعة قار بونس ، بنى غازى ، ص ٦٩ .

^٢ المسند الأبهدي ، الطبعة الثانية ، دار المشرق ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، لبنان ، ص ٢١٨ .

^٣ أخرجه ابن عساکر في تاريخه .

وَيُفْهَمُ مِنْ سَوَالِ عُمَرَ أَنَّ قَرِيشًا لَمْ تَكُنْ أَفْصَحَ الْعَرَبِ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ مَجْرَدَ سَوَالٍ وَإِنَّمَا هُوَ تَعَجُّبٌ مِنْ تَسْمِيَةِ رَسُولِ اللَّهِ أَعْلَى مَكَانَةٍ فِي الْفَصَاحَةِ اللَّسَانِيَةِ بَيْنَ قَوْمٍ لَمْ يَغَادِرْهُمْ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ لَتَسْتَحْ لَهُ الْفُرْصَةُ لِلتَّمَكُّنِ مِنْ فَصَاحَةِ قَوْمٍ غَيْرِهِمْ أَطْوَلَ مِنْهُمْ بَاعًا ، وَ أَعْلَى مِنْهُمْ مَقَامًا فِي هَذَا الشَّأْنِ . إِلَّا أَنَّ بَعْضَ الْبَاحِثِينَ يَرَى أَنَّهُ لَا تَعُسْفَ إِطْلَاقًا فِي تَأْوِيلِ حَدِيثِ الرَّسُولِ ، بَلْ يَذْهَبُ إِلَى أَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ فَيَسْتَحْسِنُ اسْتِخْدَامَهُ لِقَطْعِ "يَدٍ" بِاعْتِبَارِهِ أَسْلُوبًا تَسَعَّمَلُهُ الْعَرَبُ وَيُعَدُّ مِنْ جَيِّدِ ضُرُوبِ الْبَلَاغَةِ ، وَ هُوَ مَا يَسْمُونَهُ : تَأْكِيدَ الْمَدْحِ بِمَا يُشَبِّهُ الذَّمَّ ، فِيمَا يُشَبِّهُ قَوْلَ النَّابِغَةِ الذِّبْيَانِي :

وَلَا غَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سَيُوفَهُمْ بِهِنَّ قُلُوبٌ مِنْ قِرَاعِ الْكُتَّابِ

(الطويل)

وَبِالْجُمْلَةِ ، فَإِنَّهُمَا مَهْمَا تَعَدَّدَتِ الْآرَاءُ الَّتِي تَشْكُكُ فِي أَنَّ قَصَبَ السَّبْقِ كَانَ لِقَرِيشٍ فِي تَحْرِيرِ شَهَادَةِ مِيلَادِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَتَنْقِيَتِهَا مِنْ كُلِّ شَائِبَةٍ أَوْ غَرِيبٍ أَوْ مَرْدُودٍ ، فَمَا مِنْ سَبِيلٍ إِلَى إِنْكَارِ اتِّفَاقِ الْكَثِيرَةِ الْغَالِبَةِ مِنْ بُحَاثِ الْعَرَبِ - أَقْدَمِينَ وَ مُحَدِّثِينَ - عَلَى أَنَّ لُغَةَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ هِيَ لُغَةُ قَرِيشٍ .

فَيَقُولُ الدُّكُورُ طه حَسِين : " وَ قَدْ يَكُونُ مِنَ التَّكْلِيفِ وَ التَّحْدِثِ أَنْ يُجْمَعَ الْعَرَبُ كَافَّةً عَلَى أَنَّ لُغَةَ الْقُرْآنِ هِيَ لُغَةُ قَرِيشٍ وَأَلَّا يَظْهَرَ فِي الْعَصْرِ الْإِسْلَامِيِّ الْأَوَّلِ وَلَا فِي أَيَّامِ بَنِي أُمَيَّةَ ، وَلَا فِي أَيَّامِ بَنِي الْعَبَّاسِ مِنْ يُنْكِرُ هَذَا أَوْ يُجَادِلُ فِيهِ بِرَغْمِ مَا كَانَ مِنَ الشُّعُوبِيَّةِ الْأَعْجَمِيَّةِ وَمِنْ الشُّعُوبِيَّةِ الْحِمَيْرِيَّةِ وَمِنْ الْخُصُومَاتِ السِّيَاسِيَّةِ بَيْنَ قَرِيشٍ وَ غَيْرِهَا مِنْ قِبَائِلِ مُضَرَ ؛ ثُمَّ يَزْعُمُ زَاعِمٌ أَنَّ هَذِهِ اللَّغَةُ لَيْسَتْ لُغَةُ قَرِيشٍ وَإِنَّمَا لُغَةُ قَبِيلَةٍ أُخْرَى مَهْمَا تَكُنْ هَذِهِ الْقَبِيلَةُ " ٢٠ . وَمِنْ أَنْصَارِ هَذَا الرَّأْيِ مَنْ أَرَاخُوا لِآدَابِ الْعَرَبِ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ : جُرْجِي زَيْدَانِ وَ سُلَيْمَانَ الْبَسْتَانِيَّ وَ مُصْطَفَى صَادِقَ الرَّائِعِيَّ وَ عَبَّاسَ مُحَمَّدَ الْعَقَادَ وَ أَحْمَدَ حَسَنَ الزِّيَّاتِ وَ سَعِيدَ الْأَفْغَانِيَّ وَ غَيْرَهُمْ .

^١ محمد يوسف الخطاطي : الشعر الجاهلي وأثره ... (السابق) ص ٧٢ - ٧٣ .

^٢ د. طه حسين : في الأدب الجاهلي ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الخامسة عشرة ، ١٩٨٤ ، ص ١٠٥ .

وسنعرضُ لك فيما يلي نماذجَ من ذلك الغريب والممجوج من لهجات قبائل العرب التي لم يكن للعربية مندوحة عن أطراحها حتى تتخذ أهي زينتها تأهياً لاستقبال الذكر الحكيم الذي شرفها نطقاً بلسانها ، ثم لم يلبث أن أطلق هذا اللسان من عقاله البدوى إلى آفاق حضريّة بسطها له كل البسط .

العنّة^٢ : و مثاها :

يُقْلَن و ما يدرين (عَمَى) أَسَمِعْتُهُ و هنّ بأبواب الخيام جُنُوحُ

العَجْجَجَة : و مثاها :

عَمَى عَوَيْفٌ و أبو (عَلِج) عَمَى الْمُطْعِمَانِ اللَّحْمَ (بِالْعَشِج) عَمَى

الكَشْكَشَة : و مثاها :

(فَعَيْنَاش) عيناها و (جِيدُش) كَ جِيدُهَا و (لَوُثْش) كَ إِلَّا أَنهَا غَيْرُ عَاطِلٍ

الوتم : و مثاله :

يا قَاتِلَ اللّهِ بَنِي (السَّعَلَاتِ) س عمرو بن يَرْبُوعٍ شِرَارَ (التَّاتِ) س

الاستطاء : و مثاله :

جِيَادُكَ خَيْرَ جِيَادِ المُلُوكِ تُصَانُ الجِلَالِ و (تُنْطَى) عِ الشَّعِيرَا

الطُمُطُمَانِيَة : و مثاها :

ذاك خليلي و ذو يعاوني يرمى ورائي (بَامْسَهُم) و (افسَلَمَهُ)

بالسهم و السلمه

^١ محمد يوسف الجطلوى : الشعر الجاهلي ... (السابق) ص ٤٢ - ٤٧ .

^٢ يُوضَحُ الجَدْوَلُ الواردُ في ص ١٠٠ أنهم هذه اللهجات .

لهجات العرب (د علي عبد الواحد واهي : فقه اللغة ، ص ١٢٤-١٢٧ بتصرف)

القوم	اللهجة	مثال
تميم	إبدال همزة أن ميما (معلمة)	عن توسعت بدلا من أن توسعت
طبرستان	إبدال الهمزة هاء	لهلك بدلا من لأنك
مازن	إبدال الليم باء و الهاء ميما	با اسمك بدلا من ما اسمك و مكر بدلا من بكر
خثعم و زبيد	حذف النون من الجارة	ملبيت بدلا من من البيت كعامة مصر اليوم
طبرستان	قطع اللفظ قبل تمامه	يا أبا الحكم بدلا من يا أبا الحكم
أسد	إبدال الكاف شيئا لاسيما في الوقف كشكينة	عليش بدلا من عليك
اليمن	إبدال الكاف شيئا مطلقاً (شخشة)	لييش اللهم لييش
ربيعة	إحلاق سين بكاف المخاطب للذكر	قولهم عليك بدلا من عليك (كسكة)
هذيل و قيس و الأنصار	إبدال المعين الساكنة قبل الطاء نونا -استنطا-	إننا أنطيداك الكوثر بدلا من أنا أنطيداك
تميم	إحلاق صوت الفاء بالهاء فيصبح جيما أو كافا	كقولهم جال بدلا من قال و هنا مقترن في مصر
تميم	إبدال ياء النسب و الإضافة جيما	فلامج ، ملح ، حشج بدلا من سلامي ، علي ، عشي
قضاة	فتح باء الجر و كسر لامه في ضمير الغائب	مررت بـه و لئال له
اليمن	إبدال السين تاء (الوتم)	الغناث بدلا من الغاص
	همز ياء التثنية	الذي ، بدلا من الذي
	تسكين الذال	ألن بدلا من ألن
إبدال الهمزة التالية لهمزة الاستفهام ها، مع مد همزة الاستفهام أو عدم مدھا		
	همز تانيه	قراءة نافع : أهلتهم بدلا من أهلتهم
	إدغام الصوتين للتحسين في المخرج إننا تجلوا	قراءة ابن كثير : ضاه بدلا من ضياء
بنو أسد	ضم هاء أيها إننا لم يتلها اسم إشارة	ألكم بدلا من ألكم (قراءة أبي عمرو)
بهره	كسر أوائل الأفعال المضارعة	أية بدلا من أيها
هذيل	إبدال ياء الذين واوا في حالة الرفع	قولهم يضرب بدلا من يضرب (ثلثة)
بنو الحارث بن كعب	إبقاء ألف هذان و هاتان في النصب و الجر	قولهم : هم النون بدلا من هم الذين
جهمير	التعريف بأى بدلا من الـ (مضمرانية)	و بها فري : "إن هذان لساحران"
هذيل	قلب ألف للتصوير ياء عند الإضافة	ليس من أبيض إصمبار في أصغر
ربيعة	الوقوف على المكون بالمكون عند النصب	قولهم : سفلوا هوى بدلا من سفلوا هوى
تميم	عدم إعمال "ما"	قولهم : رأيت محمد بدلا من رأيت محمدا
قريش	فتح الراء في برىء من الرض	قولهم : ما محمد قائم بدلا من - قائما -
تميم	كسر الراء في برىء ، و هي لغة سائر العرب	قولهم : برئت من الرض فانا برء ●
	إشباع الضمة في حين للشارع للضموم	قولهم برئت من الرض فانا برء ●
لزد السراة	تسكين الهاء في وصل الضمير باللام	قولهم : أنظروا بدلا من أنظروا
	وصل واو بهميم الجمع	قولهم : له بدلا من له
		قولهم عليهمو بدلا من عليهم

الأحقاف

عاد

الحِجْر (مدائن صالح)

ثمود

أبار

اليمن

يثرب

غيبيل

اليمامة

سهم وجيس

العربُ البائدةُ

عمار الحجاز قامة نجد تيماء بظرة

الغمامة

فرع من العماليق

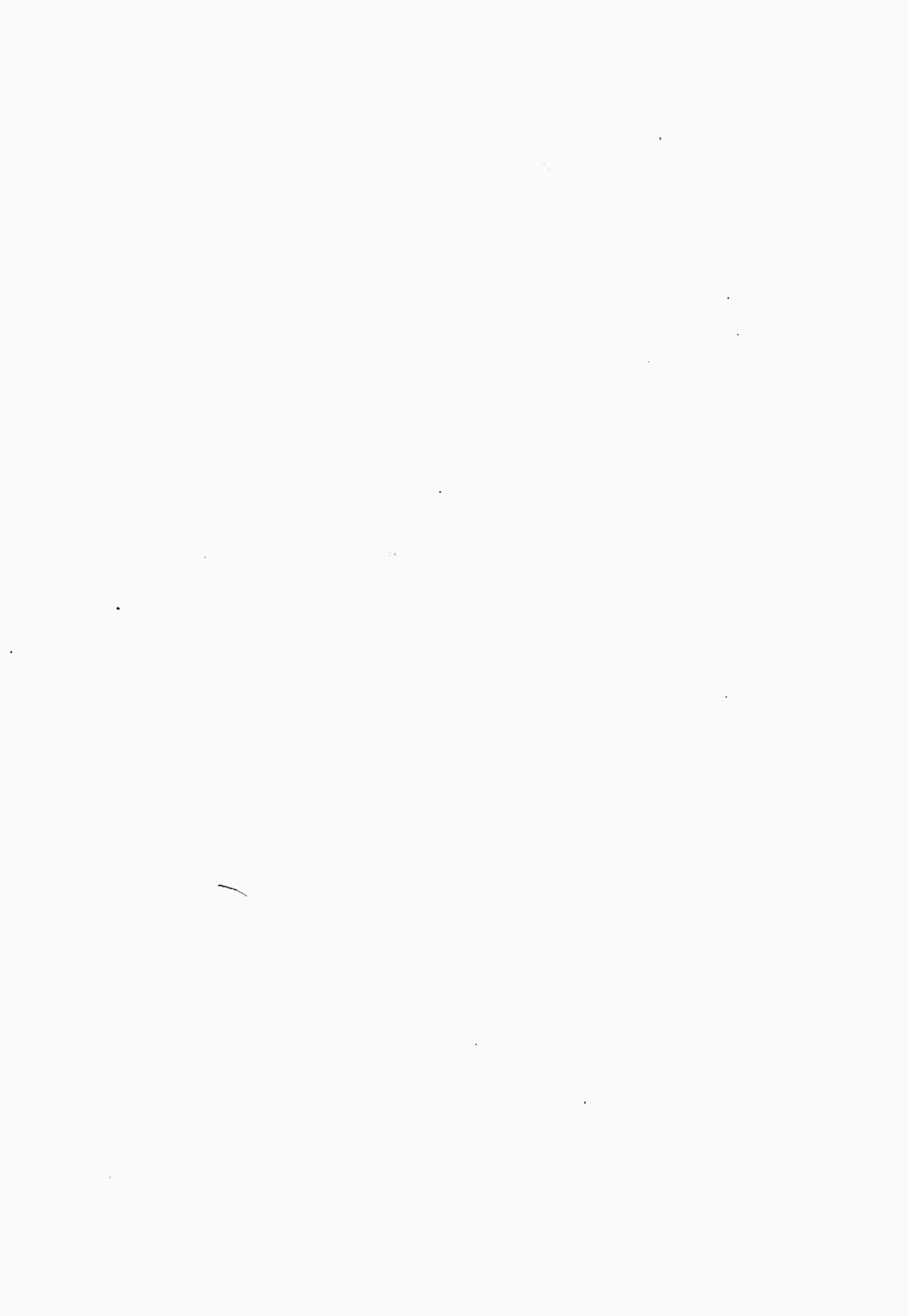
بنو ستم

الأولى (اليمن) والثانية (مكة)

بنو ستم

ارض وبار باليمن

ويز



وينبغي ألا يُفهم مما عرّضناه من لهجات العرب أنها تمثل ما يصطلح عليه الباحثون بأنه العربية البائدة ، لأن هذه العربية التي بادّت على الألسنة ، ولم تبدّ على الأحجار والصخور ، هي ذاتها المدعّوة بعربية النقوش التي كانت تنتظم عدّة لهجات استخدمها الأولون في الشمال على مقربة من الحدود الآرامية وداخل هذه الحدود في واحتي تيماء والحِجر (مدائن صالح) ومنطقة العلا في شمال الحجاز .

ولا ينبغي أن يأخذنا الظنّ إلى أن تلك العربية هي الأصل الحقيقي القديم للعربية الباقية، لأن النقوش التي وقّعت لنا منها في المساحة الواسعة الممتدة من دمشق إلى العلا تُثبت أن الناطقين بها كانوا معزّلين عن عرب نجد والحجاز ، وأنهم فقدوا الكثير من مقوماتهم العربية ، وصيّغهم الآراميون والتبتيون بصيغتهم ، حتى أنهم ليؤرّخون نقوشهم بحرب التبّط وتاريخ بُصرى وحرب الفرس والروم .

ولكن الرافعي في "تاريخ آداب العرب" يُحصي العرب البائدة في عدة قبائل أوسع التشاراً في الرقعة الجغرافية مما تقدّم ، وهي : عاد ، ومسكنهم الأحقاف ؛ و ثود في الحِجر (مدائن صالح) ؛ وأميم في بادية أبار بين عُمان والأحقاف ؛ وعيل في يثرب؛ وطسم وجديس في اليمامة ؛ والعمالقة ، وهم قبائل عدّة مساكنهم عمار والحجاز وقحمة ونجد وتيماء وفلسطين و بطره التي سماها اليونان بالعربية الصخرية (وهي غير البتراء المذكورة في سيرة ابن هشام) ؛ وجاسم وهي فرع من العماليق ؛ وجُرهم الأولى ، ومسكنهم اليمن ، ومن بقايا جرهم الثانية الذين هاجروا إلى مكة وتزوج منهم إسماعيل عليه السلام ثم أخذوا في الحرم فنزل بهم العذاب ؛ ووبار ، ومسكنهم أرض وبار باليمن . والعرب عنده بائدة ، وعاربة ، ومستعربة ؛ ويُراد بالبائدة الهالكة ، وبالعاربة عرب اليمن من ولد قحطان ، وبالمستعربة أولاد إسماعيل عليه السلام ، لأنه كان عيرانياً

^١ د. علي عبد الواحد وال : فقه اللغة (السابق) ص ٩٨ - ٩٩ .

^٢ مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب ، مكتبة الإيمان ، المنصورة ، مصر ، الجزء الأول ص ٣٩ - ٤٠ .

فاستعربَ بعدَ أن اتصلَ بجُرْهُمَ الثانيةِ من وَلَدِ قحطانَ وأصْهَرَ اليهم . وقد يُطْلَقَ على
العاربةِ : القحطانية ، و السبئية ، و الحميرية ، و الكهلانية ، و اليمنية ، و الكلبية ؛ و على
المستعربةِ : الإسماعيلية ، و العدنانية ، و المَعْدِيَّة ، و المَضْرِيَّة ، و القَيْسِيَّة .

و يسمَّى البعضُ البائدةَ بالعاربةِ ، و القحطانيةَ بالمعربةِ ، و الإسماعيليةَ بالمستعربةِ ؛
و البعضُ يجعلُ المعربةَ و المستعربةَ مترادفتين ، و يرادُ بهم الإسماعيلية . وقد وَرَدَ هذا الخلطُ
من تطبيقي أقوالِ علماءِ اللغةِ على التاريخِ ، إذ يريدونَ بالعاربةِ و العَرَبِيَّةِ الخُلُصَ ،
و بالمعربةِ و المستعربةِ الدُّخْلَاءَ^١ . ويُقسِّمُ الرافعيُّ هذَيْبَ العربيةِ و تطوُّرها إلى ثلاثةِ أدوارٍ ،
أولها في عصرِ إسماعيلَ عليه السلامُ ، و ثانيها عندَ انشعابِ القبائلِ من وَلَدِ إسماعيلَ ممَّا
أُتِيَ لِكُلِّ قومٍ متدحِّحاً للابتكارِ و الوضعِ في اللغةِ ، و ثالثها دورُ قريشٍ ، حيثُ ينسبُ إليها
منفردةً دون سائرِ العربِ .

و يقولُ الرافعيُّ في الدورِ الأولِ من هذَيْبِ العربيةِ : " و العربُ ، أهلُ هذه اللغةِ ،
قومٌ ملكوا الأرضَ و لم يملكْهم ، فلم يؤثرْ عنهم شَيْءٌ في جاهليَّتِهِم الأولى من أنواعِ الدَّلالةِ
الثابتةِ : كالكتابةِ و الآثارِ و نحوها ، ولا دخلوا في تاريخِ أُمَّةٍ من أُمَمِ الحضارةِ فيكونَ لهم
نوعٌ من تلكِ الدَّلالةِ ؛ و على ذلكِ يتعيَّنُ أن تكونَ لغَّتُهُم أيضاً قد مَلَكَتِ التاريخَ و لم
يملكْها ، و هي لا بُدَّ أن تكونَ قد تقلَّبتْ معهم على وُجُوهِ من الإصلاحِ و جَرَّتْ على مَنَاحِ
من التهذيبِ ؛ و تاريخُ ذلكَ بالطبعِ غيرُ محقَّقٍ بالنَّصِّ . . . و إن كانتِ هذه الجهةُ منها قد
حَفِظَتْ بعضَ الآثارِ التي يترسَّنها الباحثُ و يراها كأنما تُرِكَتْ بالأَمْسِ ؛ و ذلكَ لقُربِ
عهدِ الرُّوَاةِ في صَدْرِ الإسلامِ بقبائلِ العربِ الذينَ خَلَصَتْ من لهجاتِهِم هذه اللغةُ المَضْرِيَّةُ .
و قبلَ أن نأخذَ إلى القصْدِ من هذا التاريخِ ، نأتى على شَيْءٍ من أقوالِ العلماءِ العربِ في
أمرِ اللغةِ و هذَيْبِها ؛ فهمُ مجمعونَ على أن إسماعيلَ عليه السلامُ أصلُ العربيةِ المَضْرِيَّةِ

^١ السابق.

... وهذه هي التي نزل بها القرآن ، وقد انفتح لها لسان إسماعيل ... والذي عندنا ، أن المراد بانطلاق لسان إسماعيل بالعربية ، وضع أصلها بما أضاف من لغة جرهم إلى لغة قومه ؛ وبذلك انطلق لسانه من الكلام في مذهب أوسع متحى وأوضح دلالة ؛ وهذا معنى ما ورد في الحديث من أنه أول من فتح لسانه "بالعربية المبينة" وذلك أمر خاص بالكمال الفطري لا يحتاج إلى تمرين ولا تلقين ولا تدريج ولا تخريج ؛ هذا إذا صح الحديث ، وإلا فإن إسماعيل علم من أعلام التاريخ الصحيح ، وهو الرأس الذي أودع العقول من تأريخ العدنانية أصل هذه اللغة ، ... فلا جرم كان في الاعتبار أصل اللغة ، وكانت كأنها منسوبة إليه نسبة تأريخية ، لأن ما وراءه كأنه منقطع عن التاريخ ؛ إذ هو تبة من الظن لا يعرف في أى موضع منه توجد الحلقة المفصومة من سلسلة التاريخ العربي . وعلى هذا يصح لنا أن نقول : إن أول تهذيب حقيقي في العربية ، يرجع إلى عهد إسماعيل ؛ أما تنقيح اللغة قبل ذلك فإنما هو درجات من التثوير الزمني لا يمكن بوجه من الوجوه أن يحدد أو ينسب إلى فرد معين ، كنسبتهم بعضه لعروب ابن قحطان مثلاً ، إلا إذا صح التسلسل التاريخي حتى ينتهي إليه ، وذلك غير صحيح . والاستدلال على نسبة المنطق العربي إلى عروب إنما هو استدلال لقوى فقط تنبأ إليه انجانسة اللفظية ؛ إلا فإن من المؤرخين من يقول إن عروب هذا هو المعروف في التوراة باسم "يارح بن يقطان" وإذا وجدنا دلالة الإعراب ، أى الإبانة في يعرب ، فلا نجد لها في يارح ، لا بالنص ولا بالتأويل^١ .

والتأمل لهذا النص يخلص بغير غناء إلى أن الدليل التاريخي على أن إسماعيل عليه السلام أبو العربية المضربة التي نزل بها القرآن إنما هو دليل سلبي محض ، لأنه مؤسس على شبه القطاع تاريخي فيما سبق عصر إسماعيل ، ومن حيث قاد هذا النهج الاستقصائي الباحثين إلى استبعاد من هو أسبق من إسماعيل إلى انفتاح لسانه بالعربية المبينة ، لمجرد غياب الآثار والقرائن والبيئات التي تدحض هذا الاعتقاد ، فأنهم قد أثبتوا لإسماعيل السبق على

^١ السابق ، الجزء الأول ، ص ٧٣ - ٧٥ .

سائر العرب في ذلك . وكانت كأنها منسوبة إليه نسبة تاريخية لأن ما وراءه كان كأنه منقطع عن التاريخ .^١

والدليل الآخر الذي يسوقه الرافعي مُستمد من الحديث الشريف القائل بأن إسماعيل عليه السلام أول من فُتق لسانه بالعربية المبينة . والرافعي نفسه غير مطمئن إلى صحة إسناد هذا الحديث الذي رواه السيوطي في الجامع الصغير (٢٨٣٧) وعزاه للشيرازي في الألقاب عن علي ، وقال : حسن . ومع ذلك فإن الرافعي يبدو في صورة المضطر إلى التسليم بصحة الدليل التاريخي ، على ما يعتوره من وهنٍ وثقافتٍ في المنهج ، ثم إنه مضطر أيضاً إلى التسليم بصحة الدليل الديني (الحديث النبوي) رغم قوله فيه نصاً "هذا إذا صح الحديث" . وهو يحاول تأويله على نحو يقبله عقله ، ويربأ به عن أن يتهم بالشك في متن من متون السنة النبوية ، فيقوده تأويل فكرة " فُتق اللسان بالعربية المبينة" إلى القول بأن " ذلك أمر خاص بالكمال الفطري ، لا يحتاج إلى قرين ولا تلقين ولا تدريج ولا تخريج" . يريد أن ذلك الانفتاح اللساني كان إلهاماً إلهياً مباشراً دون توسط واسطة ولا توسل وسيلة ، وأن هذا الامتلاك لخاصية اللسان العربي المبين قد وقع بغتة في قلب رجل خلت وفاضة من كل علم قبلي هذه البلاغة ، فإذا به بين غمضة عين وانتباهتها أفصح العرب ، وصاحب القدح الأعلى من بينهم في هذا المضمار .

ولكن الرافعي لم يكن مقنعاً إلا لقلبه ، لا لعقله ولا لعقل قارئه . والمحقق تاريخياً أن العربية لم تكن لسان إسماعيل ، ولا لسان أبيه إبراهيم عليهما السلام ، وأما لم تجر على لسان إسماعيل إلا بعد أن أسكنه أبوه وأمه الوادي غير ذي الزرع الذي جاء في الذكر الحكيم . وهناك ، وبعد أن شب إسماعيل عن الطوق ، واجتاز الصبا وبلغ الغلواء تزوج من جرهم ، ومنهم تعلم العربية^٢ .

^١ مبلغ الرجال

^٢ د. علي عبد الواحد وإل : فقه اللغة (السابق)

ويستشهد الرافعي بابن سيدة صاحب المخصّص إذ يقول : "و على هذا يكون توقيف إسماعيل على العربية المحضة يحتمل أمرين : إما أن يكون اصطلاحاً بينه وبين جرهم النازلين عليه بمكة ، وإما أن يكون توقيفاً من الله تعالى وهو الصواب" .

وقد رأيت معنا تَوَحَّى الرافعي منهجاً علمياً صريحاً في رفضه الاستدلال اللغوي على أن يعرّب بن قحطان أول من نقّح العربية وهدّبا قبل إسماعيل ؛ فأى سند علمي ثرانا واجديه في إثباته التنقيح و التهذيب الأولين لإسماعيل على أساس تاريخي واه لا قيام له إلا على رجلين متراخيتين من الاستقصاء السلي ، وعلى أساس ديني قائم على متن من الحديث الشريف كان موضع شك الرافعي ذاته ؟ بيد أن الرؤية العلمية تتضح في قوله : "و الذي عندنا أن المراد بانطلاق لسان إسماعيل بالعربية وضح أصلها بما أضاف من لغة جرهم إلى لغة قومه" . ثم قوله : "و لو صحّ هذا وأمثاله لكان دليلاً على أن لغة القرآن متوارثة في قريش من لدن إسماعيل عليه السلام ؛ وتكون قد بقيت زهاء خمسة وعشرين قرناً وهي جامدة على واحدة ؛ وهذا الرأي مدفوع في العقول ، وإنما سوغه عندهم ما يريدونه من إعطاء هذه اللغة صفة إلهية لمزلة القرآن منها ، وما كان إلهياً فهو كذلك إلى الأبد ؛ غير أن التاريخ لا دين له في نسقه الزمني ، وإنما التحول والتنوع من سنن الله : (ولكن تجد لسنة الله تبديلاً)" .

ثم ينتقل الرافعي إلى الدور الثاني من أدوار تهذيب العربية ، فيعزوه إلى خروج أولاد إسماعيل ، وانشعاب القبائل منهم "بعد أن كانت لغتهم قد اشتدت و قطعت مسافة بعيدة من الفرق بينها وبين أصلها الذي اشتقت منه ، فابتدأت تأخذ صورة متميزة من الاستقلال" . ويستطرد قائلاً : "فلما تفرقت القبائل أخذت اللهجات تنوع ، والعرب إنما هجم بهم طبايعهم على حقائق الكلام ، وبذلك لا بُد أن تكون قد تعددت طرق الوضع في اللغة بطول المدة واتساع الاستعمال وتقلب الكلام على وجوه المستحدثة ، ومن ثم نشأت اللغات الكثيرة التي تشير إلى تاريخ هذا التنوع لأنها مادته الحقيقية" .

وكانت العرب يأخذ بعضها عن بعض بالمخالطة والمجاورة ، فرمما انتقل لسان العربي عن لغته إلى لغة قبيلة أخرى ، وربما تداخلت اللغات فتشأت من اللغتين لغة ثالثة ، على أنهم في ذلك لا يخرج كل منهم عن قياس نفسه ووزن طبعه ، حتى كأن ألسنتهم تختلف مثل الاختلاف ما بين أجسامهم وأذواقهم ، فكل منهم يفصل من الكلام ويتصرف في وجوه القول على حسب هذا القياس الذي خلق فيه وركب في طبعه و كان مظهر قريحته^١ .

أما الدور الثالث من قذيب العربية فيذهب فيه الرافعي مذهب كثرة الباسحين إلى أن قريشاً انتقت من لغات العرب خيارها ، وقد أتيج لها ذلك لأن الكعبة كانت وجهة العرب قاطبة ، وكان لكل قبيلة صتم من بين ثلاثمائة وستين صنماً تحج إليه وتقدم بين يديه القرابين . وكانت تلك القبائل متباينة اللهجات ، فكانت قريش تجتبي أحسن ما فيها "فيديرون به ألسنتهم ويجرون على قياسه ، ولو كانوا بادين كسائر القبائل ما فعلوه ، ولكن نوع الحضارة الذي اكتسبوه من تاريخهم لأن من طباعهم وكسر من صلابتهم . . . فلما اجتمع لهم هذا الأمر ارتفعت لغتهم عن كثير من مستبشع اللغات ومستقبجها ، وبذلك مرنوا على الانتقاد حتى رقت أذواقهم ، وسمت طبائعهم ، وقويت سلاتقهم ؛ وحتى صاروا في آخر أمرهم أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً ، و أبينها إبانة عما في النفس ؛ وكانت لهم رحلتان في التجارة كل عام : رحلة الشتاء إلى اليمن ، و رحلة الصيف إلى بصرى في حوران . . . وكذلك كانوا يضربون في الأرض إلى فارس وإلى الحبشة ، فسمعوا مناطق الناس وتديروا وجوه العذوبة في أعذبها ، وتناولوا كثيراً من ألفاظ تلك الأمم ، فداخلت كلامهم وأعربوها من الرومية والفارسية والعبرانية والحبشية والحميمية ؛ وعلى ذلك صاروا بطبيعة أرضهم في وسط العرب كأنهم مجمع لغوي يحوط اللغة ويقوم عليها ويشد أزرها ويرفع من شأنها ويزيد في ثروتها ، وبالجملة يحقق فيها

^١ الرافعي : تاريخ آداب العرب ، ص ٧٤

كلّ معاني الحياة اللغوية" . ثم يُبدى الراجعيّ شديداً دهشته من ألاّ يَسْتَغْرِقَ هذا الدورُ الذي اضطلعت به قريشٌ أكثرَ من مائة سنةٍ قبلَ الهجرةِ إلى مائةٍ وخمسينَ على الأكثرِ : "فلا بُدَّ من التسليمِ بأنّها حادثةٌ كونيّةٌ من خوارقِ النظامِ الطبيعيِّ ، ظهرتِ نتيجتُها بعدَ ذلكِ في نزولِ القرآنِ الكريمِ بلغةِ قريشٍ" .

وبذلكَ نخلصُ من العرضِ التاريخيِّ الذي يقدّمه لنا الراجعيّ إلى أن ما سبقَ عهدَ إسماعيلَ من قصةِ العربيةِ هو مما لا سبيلَ إلى اقتفاءِ أثره والتماسه في مظائره لأن هذه المظانَّ تكادُ أن تكونَ بلا وجودٍ تاريخيٍّ يطمئنُ إليه الباحثُ ؛ أما الشكلُ الأولُ الذي اتخذتهُ العربيةُ فنعزى إلى إسماعيلَ وإلى من أضهرَ إليهم من جرّهم فزأوجَ بين لسانه ولسانهم كما تقدّم ، على ما في الدليلين التاريخيِّ والدينيِّ على ذلك من مثالبٍ أشرنا إليها في موضعيها . وكان التهذيبُ الثاني للعربيةِ من تفرُّقِ الألسنةِ إلى لهجاتٍ تعبّرُ عن الحسِّ اللّغويِّ لكلِّ فريقٍ من ولَدِ إسماعيلَ ، وما أتاخذهُ هذا التعدُّدُ من تلاقحِ الألسنةِ وتوالُدِ الجديدِ من مفرداتٍ . ثمّ كانَ دورُ قريشٍ في لمّ الشّتاتِ ، ودقّةِ الانتقاءِ والتنقيحِ ثالثَ الأدوارِ قبلَ نزولِ القرآنِ .

غموض وشبه إنقطاع تاريخي

